

معاملة غير المسامحين
في
الدولة الإسلامية

د. نزيهان عبد الكريم أحمد



الهيئة المصرية
العامّة للكتاب

تاريخ المصريين

(٩٠)



رئيس مجلس الإدارة
د. سمير سرحان

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

الإخراج الفني : مراد فسيم

معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية

تأليف

د. نزيهان عبد الكريم أحمد
مدرس التاريخ الإسلامى
كلية الآداب - جامعة المنوفية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ »

صدق الله العظيم

سورة آل عمران (آية ٦٤)

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ العزيز هذا الكتاب القيم عن « معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية » للدكتورة نريمان عبد الكريم أحمد ، مدرس التاريخ الإسلامي بكلية الآداب جامعة المنوفية . وقد سبق لهذه السلسلة أن قدمت لها كتاب « المرأة في مصر في العصر الفاطمي » ، الذي صدر في العدد ٦٦ .

وبهذا الكتاب تكون هذه السلسلة قد أظهرت اهتمامها بالعلاقة بين المسلمين والأتباط خاصة ، وأهل الذمة عامة ، في مصر ، على نحو يتبين مجموعة قيمة من المراجع التاريخية . فقد قدمت للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف كتاب : « مصر في فجر الإسلام » و « مصر الإسلامية وأهل الذمة » . و « مصر في عصر الولاة » ، وقدمت للدكتور سلام شافعي محمود كتاب : « أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول » والمؤرخ « تريتون » كتاب : « أهل الذمة في الإسلام » ، الذي ترجمه المؤرخ الكبير الدكتور حسن حبشي . هذا في التاريخ الإسلامي . أما في التاريخ الحديث فقد قدمت السلسلة كتاب الدكتور محمد عفيفي : « الأتباط في مصر في العصر العثماني » . وبذلك تكون هذه السلسلة هي أول سلسلة تقدم للمكتبة العربية هذا العدد المتميز من الكتب التاريخية التي تعالج العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة .

والكتاب الذى بين ايدينا يتناول فى الفصل التمهيدى تحديد المفهوم الخاص بأهل الذمة . والمنهج الاسلامى فى معاملتهم . أما الفصل الثانى فيتناول الحرية الدينية والمدنية التى تمتع بها أهل الذمة فى الدولة الاسلامية بالمقارنة بما نالوه من هذه الحريات قبل الاسلام . وأما الفصل الثالث فتناول الوظائف التى شغلها أهل الذمة فى العصر الاسلامى . وتناول كل من الفصلين الرابع والخامس دور أهل الذمة فى الحياة الاقتصادية فى الدولة الاسلامية ، وأحوالهم الاجتماعية والثقافية . وكل ذلك بالاستناد الى المصادر التاريخية الأولية .

وأملئ أن يجد القارئ العزيز فى هذا الكتاب ما ينشد من نائدة ومثمة .

والله الموفق ..

الهرم فى ١٤/٩/١٩٩٥

رئيس التحرير

أ . د . عبد العظيم رمضان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قامت الدولة الإسلامية في بدايات القرن السابع الميلادي ،
في وقت استشرى فيه الظلم في أرجاء المعمورة ، حيث كان رعايا
امبراطوريتي الفرس والروم يعانون من حكم استبدادي جائر ، كما
لم يكن هناك حركة دينية بل كانت الدولة البيزنطية تموج
بالانشقاقات الدينية وحاولت أن تجبر رعاياها على اعتناق مذهبها
الرسمي مما أدى الى حدوث سلسلة من الاضطهادات الدينية .
كما حاربت الدولة الساسانية كل حركة دينية كانت تهدف الى
الاصلاح .

فجاء الاسلام في خضم هذه الظروف ، بأفكاره السمحة ليؤنسج
مبادئ العدل والمساواة والتكافل الاجتماعي بين الناس . ولما كان
الرسول عليه الصلاة والسلام قد بعث للناس كافة ، فكان لابد من
توجيه الدعوة الإسلامية الى بلاد العرب وخارجها فخرجت الجيوش
العربية تنشر الدين شرقا وغربا واستطاعوا في فترة وجيزة أن
يضموا الامبراطوريتين البيزنطيتين حيث استطاعت الحركة الإسلامية

ان تمضى قدما لان أهالى البلاد المفتوحة وجدوا فى الاسلام ضالّتهم المنشودة .

ولما كانت الدعوة الى الاسلام تقوم من خلال اطلاق الحرية الكاملة للناس وعدم اجبارهم على الدخول فيه نشأ عن ذلك احتواء المجتمع الاسلامى اعدادا من غير المسلمين من رعايا الفرس والروم من النصارى واليهود والمجوس والصابئة الذين شكلوا جزءا من هذا المجتمع تحت حكم الدولة الاسلامية .

وفى الحقيقة من يتصدى لمعالجة هذا الموضوع يواجه بعدد من المصاعب منها : بعثرة المادة التاريخية فى بطون المصادر ، كذلك الامتداد الزمانى والمكانى للدولة الاسلامية ، فضلا عن انه يجب على الباحث ان يكون على يقظة تامة وان يلتزم بالموضوعية فى معالجة مثل هذه الموضوعات التى تمس الطوائف الدينية التى عاشت فى كتف دولة اسلامية كبرى .

وقد اتبع فى البحث منهج يقوم على أساس استقراء النصوص وتحليلها ومناقشة آراء المؤرخين المحدثين فى اطار تاريخى موضوعى . بمعنى ان البحث قسم الى عدة موضوعات عولج كل موضوع فى فصل بذاته من خلال التسلسل التاريخى وعول البحث على الاهتمام بالعراق ومصر على وجه الخصوص باعتبارهما كانتا تمثلا مركزين للخلافة الاسلامية فى وقت ازدهارها الى جانب الالم بما كان يحدث فى الاندلس ، وغيرها من الدول التى شملتها دار الاسلام .

ويستعمل التمهيد على تحديد المفهوم الخاص بغير المسلمين وما يطلق عليهم آنذاك من اصطلاح اهل الذمة والفصل الاول يشمل المنهاج الاسلامى فى معاملة غير المسلمين من خلال النصوص

القرآنية والسنة النبوية ثم الدعوة الى الاسلام فى ضوء هذا المنهاج وما ترتب عليها من ابرام عهود الامان مع اهالى البلاد المفتوحة وما اتيح لتغير المسلمين من حريات كفلها لهم الاسلام ، ثم تعرض للحزبة والوقوف على طرق جبايتها والشرائح المغفأة منها ثم يتناول الخراج وأخيرا يقف على ما وضعه الفقهاء من شروط لعقد الذمة فى ضوء بعض الامور المتعلقة بها من الزام غير المسلمين بالتبيل وعدم بناء الكنائس .

أما الفصل الثانى فقد تناول الحرية الدينية والمدنية من خلال عرض لأحوال أهالى البلاد المفتوحة قبل الاسلام من اضطهادات ومقارنتها بما نالوه من حريات داخل جماعاتهم الدينية وممارسة شعائهم الدينية فى حرية تامة ثم تناولنا بالعرض قضاء الذميين وقوانينهم الخاصة .

والفصل الثالث يتناول وظائف غير المسلمين فى الدولة لإسعيها فى الجهاز الادارى الذى اتيح لهم العمل فيه من البداية ويوقف الدولة من استخدامهم بالادارة الاسلامية ، ثم يتناولهم فى بعض منسب الوزارة .

والفصل الرابع يتناول دور غير المسلمين فى الحياة الاقتصادية والاستفادة من حالة الازدهار الاقتصادي مما يساعد على ظهورهم كتجار وصيارفة وجهابذة مما مهد لهم القيام بدور البنوك فى الوقت الحاضر من تقديم القروض وقبوا، الودائع .

والفصل الخامس يتناول الأحوال الاجتماعية والثقافية لغير المسلمين فيتناول رعاية الدولة لأهل الذمة وإتاحة الفرصة لهم فى الاحتفال بأعيادهم كيفما شاعوا ومشاركة المسلمين والذمة فى أعيادهم كثيرة لهم فى أعيادهم وإطلاق الكسوات والأموال وفى الناحية الثقافية تناولنا فيه حرية التعليم وظهور كثير من البرزين فى مختلف العلوم .

وتفصيل هذه الفصول بخاتمة عرض فيها لما انتهينا اليه من
نتائج أسفرت عنها الدراسة .

واستقينا المادة المتعلقة بموضوع البحث من مصادر مختلفة
سواء من كتب الخراج والأحكام ومن الكتابات التاريخية من كتب
الفتوح أو كتب الحوليات والتواريخ الإقليمية الخاصة بأهل الذمة
كما سبق أن ذكرنا ، لذلك فهذه المصادر مع اختلافها كل منها يمثل
أهمية وخصوصية معينة من حيث المادة التي يشتمل عليها لذلك
سوف نتناولها كل على حدة .

وتأتى كتب الخراج فى المقدمة ، لأنها تعالج بشكل مباشر
وضعية الأرض فى البلاد المفتوحة ، حقيقة أن الخراج لم يكن
قاصرا على أراضى الذميين ولكنه فى البداية وضع ليقرر على هذه
الأرض بشكل خاص ومنها كتاب القاضى أبو يوسف ، يعقوب بن
إبراهيم الذى توفى عام ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م المسمى كتاب الخراج (١)
فمن خلال النصائح التى قدمها أبو يوسف للخليفة الرشيد قدم لنا
سجلا رائعا عن كيفية معاملة أهل الذمة ماليا وقدر الجزية فيمن
تجب عليهم الجزية وطرائق جبايتها التى يراعى فيها الرفق وكذلك
تقدير الخراج ويورد ضمن كتابه بعض عهود الأمان التى أبرمها
القادة الفاتحون مع أهالى البلاد المفتوحة .

وكتاب يحيى بن آدم القرشى المتوفى عام ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م
فى كتاب الخراج (٢) يتناول أيضا الجزية والخراج ويفكر أجديث
لرسول عليه الصلاة والسلام توحى بالرفق مع أهل الذمة وكذلك
للخليفة عمر بن الخطاب .

(١) القاهرة : الطبعة السادسة ١٣٩٧ هـ .

(٢) القاهرة : الطبعة الثانية .

وفينا يتعلق بالاحكام يأتى فى المقدمة. الماوردى ، أبو الحسن
على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادي توفى عام ٤٥٠ هـ /
١٠٥٨ م فى كتابه الاحكام السلطانية فى الولايات الدينية (٣) ، وفى
هذا الكتاب يقدم لنا الاطار النهائى الذى وضع عبر القرون فى
كيفية معاملة أهل النمة من خلال قالب فقهي متكامل يحدد الشروط
التي على أساسها يتم عقد الذمة .

أما عن الكتابات التاريخية فمع تنوعها فهي تفيد موضوع البحث
الى حد كبير ، فعلى الرغم من أنها تعول على الجانب السياسى
لكنها تكشف الغبوض من علاقة الذميين بالدولة سواء فى
اشتراكهم فى العمل فى الجهاز الادارى أو أعمال الخراج أو حتى
كتابا اختصوا بخدمة الخلفاء .

ويأتى فى مقدمة هذه الكتابات كتب الفتوح ومنها ما كتبه
البلاذرى ، أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى عام ٢٧٩ هـ /
٨٩٢ م فى كتاب فتوح البلدان (٤) وقد التزم بالاسناد فى رواياته
الخاصة بالفتوحات وترجع أهمية هذا الكتاب الى أنه ينقل عن
الواقدي المتوفى عام ٢٠٧ هـ / ٨٨٢ م والذي يمثل أقدم ما كتب عن
المغازى والفتوح ، والبلاذرى يقدم لنا مادة غاية فى الأهمية فهو
من خلال عرضه للفتوحات يضمنها عهود الأمان التي أبرمت مع أهالي
الشعوب المفتوحة وكيفية تعامل الفاتحين معهم ومقدار الجزية
والخراج الذي ربما اختلف من اقليم لآخر حسب الغنى والفقر لهذه
الاقليم .

ثم تأتى كتب الحوليات بعد ذلك فيها كتبه الطبرى ، محمد بن

(٣) الغامرة : ١٢٩٨ هـ .

(٤) الغامرة : ١٩٣٢ .

جنسبرير الذى توفى عام ٣١٠ هـ/٩٢٢ م فى كتابه تاريخ الامم والملوك (٥) فهو بأخباره ككتاب حوليات يقدم لنا بعض الأحداث المتعلّقة بالذميين ونفس الشيء يقال عن ابن الأثير : محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيبانى المتوفى فى عام ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م فى كتابه الكامل فى التاريخ (٦) الذى يتعرض فى أحيان كثيرة لأخبارهم وإلى جانب هذه الكتابات التى تتناول التاريخ العام للدولة الإسلامية فهناك بعض الكتابات الإقليمية سواء للمغرب أو الأندلس أو مصر . فضلا عن ذلك ، فهناك كتب الجغرافيا التى تعرضت للتوزيع الديموجرافى لاهل الكوفة فى الدولة الإسلامية واسمعة الأرجاء ومنها كتاب المقدسى وابن حوقل وابن خرداذبة .

وبجانب هذه المصادر ، فهناك المراجع الحديثة سواء للعرب أو المستشرقين من خلال الكتب التى ألفوها أو الدوريات التى نشروها ومنها كتابات الدكتورة حسن أحمد محمود وقاسم عبده قاسم وغطية القومى كذلك كتب المستشرقين أمثال جوايتين وأشتور ومان وغيشيل وغيرهم .

وهذه محاولة متواضعة لالقاء الضوء على ما اتاحته الدولة الإسلامية من رعاية شاملة وحرية تامة للطوائف الدينية التى شيدتها دار الاسلام .

(٥) القاهرة : ١٩٧٩ .

(٦) القاهرة : ١٩٨٣ .

تمهيد

ضمت الدولة الاسلامية اعدادا من غير المسلمين من اهالى البلاد المفتوحة الذين ظلوا على دينهم وعرفوا فى اول الامر باسم (الرعية - أو الاعاجم) بمعنى أن العرب رعاهم (١) لكنهم عرفوا من خلال كتب الفقه الاسلامى باصطلاح « أهل الذمة » والذمة تعنى العهد والأمان والضمان ، كما هى تقرير بتوطين أهل الكتاب فى ديار الاسلام ، وحمايتهم لدخولهم فى عهد المسلمين وأمانهم (٢) .

لذلك يطلق هذا الاسم على من يجوز عقد الذمة معهم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس الذين اعتبروا ذمة الى جانب الصابئة (عبدة النجوم) بشرط أن يوافقوا اليهود والنصارى فى أصل معتقداتهم وكان من حقهم أن يقيموا فى بلادهم بناء على معاهدات الأمان أو الصلح أو أنهم خضعوا للعرب بحكم أن بلادهم

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٠٨ .

(٢) الماوردى ، الاحكام السلطانية ، القاهرة ١٢٩٨ ، ص ١٤٣ ، ابن منظور ،

لسان العرب ، بيروت ١٩٥٦ ، ج ١٥ ، ص ١١١ .

فتحت عنوة (٣) . فحوت معاهدات الأمان عبارات مختلفة بهذا الخصوص منها : (فمن منع ما عليه فلا عهد له ولا ذمة) ، (وان بدلوا واستخفوا بعهدهم فالذمة منهم بريئة) (٤) .

وقد اثار القرآن الكريم الى طوائف اهل الذمة وحدد طبيعة معاملتهم وعلاقتهم بالمسلمين من قوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشرکوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد » (٥) . وقال سبحانه : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والذين اشرکوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٦) .

كما اشارت احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الى غير المسلمين من خلال اصطلاح الذمة ومنها : (احفظوني في ذمتي) وها جاء ايضا على لسان الخلفاء من بعده سنذكره في حينه . كذلك كتب التاريخ التي حفلت بذكر اخبارهم قد اشارت اليهم بهذا الاصطلاح الذي ظل شائعا في الدولة الاسلامية على مر الزمن .

Encyclopedia of Islam, 2ed, Art Dhimma, P. 227 (٢)

(٤) حيد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ،

القاهرة ١٩٤١ ، وثيقة رقم ٢٤٣ ص ٢٥٥ ، ٣٣٦ ، ص ٢٤٩ .

(٥) سورة الحج : آية ١٧ .

(٦) سورة البقرة : آية ٦٢ .

المنهاج الاسلامي في معاملة غير المسلمين

- موقف القرآن الكريم والسنة النبوية
- الدعوة الى الاسلام
- عهود الامان
- الجزية
- الخراج
- عقد النمة وشروطه

المنهاج الاسلامى فى معاملة غير المسلمين

موقف القرآن الكريم والسنة النبوية

وقف الاسلام موقفا متسامحا تجاه الاديان الاخرى ، كما تقررت من خلاله القواعد التى على أساسها يعامل غير المسلمين فى دار الاسلام وما يجب على المسلمين اتباعه من تعاليم وما عليهم من واجبات من خلال القرآن الكريم الذى نظم تلك العلاقات . . فشملت كثير من النصوص القرآنية روح التسامح والعفو قال تعالى : « فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين » (١) وكذلك فى سورة الشورى قال سبحانه : « فمن عفا واصلح فاجره على الله انه لا يجب الظالمين » (٢) . كما يتضح موقف الاسلام منذ البداية فى الدعوة للاسلام فقد حدد وبدقة عدم اجبار الناس على الدخول

(١) سورة المائدة : آية ١٣ .

(٢) آية ٤٠ .

فى الاسلام قال تعالى : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي » (٣) ، ويقول سبحانه وتعالى مخاطباً الرسول : « ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٤) ، وقال تعالى : « فنكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » (٥) .

سار الرسول عليه الصلاة والسلام على هذا النهج ، فقد منع رجلاً حاول أن يرغم ولديه على الاسلام ، يذكر المؤرخون (٦) أن رجلاً يقال له الحصين من بنى سالم بن عوف كان له ولدان مسيحيان وهو مسلم فسأل الرسول عليه الصلاة والسلام عما كان يبتز له اكراههما على اعتناق الاسلام وهما يرفضان كل دين غير المسيحية فنهاه الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك : كما كانت احدى نساء بنى قريظة وتدعى ريحانة من نصيب الرسول عليه الصلاة والسلام بعد محاربة قومها (٧) ، فعرض عليها الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب ، فقالت : يارسول الله بل تتركنى فى ملكك ، وأبت الا اليهودية فقربها الرسول

(٣) سورة البقرة : آية ٢٥٦ .

(٤) سورة يونس : آية ٩٩ .

(٥) سورة الفاتحة . آية ٢١ — ٢٢ .

(٦) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك : القاهرة ١٩٧٩ ، ج ٢ ، ص ٥٦٢ .

(٧) كان بين يهود بنى قريظة وبين الرسول عليه الصلاة والسلام عهداً منقوضاً وانحازوا الى قريش فى واقعة الخندق محاصروهم الرسول ولما اشتد عليهم الحصار نزلوا على حكمه واختار الرسول سعد بن معاذ الأوسى يحكم فيهم فحكم بقتل الرجال وسبى النساء والذرية وتقسيم أموالهم بين المسلمين . انظر ابن هشام السيرة النبوية قدم لها وعلق عليها طه عبد الرؤوف ، القاهرة ١٩٧٦ ، ج ٣ ،

ص ١٢٥ .

عليه الصلاة والسلام حتى أسلمت بعد ذلك . كما كتب الى معاذ بن جبل وهو باليمن أن لا تفتن يهوديا عن يهوديته (٨) .

كما دعا الاسلام الى اتباع أسلوب اللين والرفق والحوار الهادئ والمجادلة بالحسنى من خلال استخدام العقل والمنطق لاقتناع أهل الكتاب بالدخول في الاسلام قال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلينا وإلهم واحد ونحن له مسلمون » (٩) .

ويقول سبحانه مخاطبا الرسول : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » (١٠) ، وفيه أيضا : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا أشهدوا باننا مسلمون » (١١) .

الدعوة الى الاسلام :

بدأ الرسول عليه الصلاة والسلام بعد نزول آيات تشريع الجهاد بنشر الدعوة الاسلامية بين القبائل العربية وكانت موجبة في البداية الى القرشيين الذين ظلوا على وثنياتهم وناصبوا الرسول عليه الصلاة والسلام العداء فعمل على استمالة القبائل المقيمة بين مكة والمدينة واربط بأكثرها برابطة الحلف واستطاع عليه الصلاة

(٨) نفسه ، ص ٢٥٦ .

(٩) سورة العنكبوت : آية ٤٦ .

(١٠) سورة النحل : آية ١٢٥ .

(١١) سورة آل عمران : آية ٦٤ .

والسلام بعد صراع طويل مع القرشيين أن يعقد صلح الحديبية ثم واجه خطر اليهود فى المدينة وبعدها بدأ يوجه جهوده خارج بلاد الحجاز لينشر الدعوة الإسلامية التى بدأت فى السنة السادسة للهجرة بإرسال رسائل من قبله الى قبائل العرب وأمراء النواحي فى شبه الجزيرة العربية وخارجها وملكوك الدول المعاصرة له لتعميم الدعوة الإسلامية مؤكدا لما جاء فى القرآن الكريم من مطالبة الناس جميعا بقبول الإسلام قال تعالى : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لا يعلمون » (١٢) وفيه أيضا : « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » (١٣) . فالإسلام رسالة عالمية لا بد أن تبلغ للناس كافة (١٤) .

وانضحت سياسة الاقتناع التى اتبعها الرسول عليه الصلاة والسلام من خلال الكتب التى وجهها عليه الصلاة والسلام الى أمراء العرب والملكوك المعاصرين يدعوهم للدخول فى الإسلام فكتب الى المنذر بن ساوى أمير البحرين (فائى أحمد الله الذى لا اله الا هو ، اما بعد فان من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا واكل ذبيحتنا فذلك المسلم ، ومن أبى فعلية الجزية (١٥) . وكتب أيضا الى أهل اليمن (من أسلم من يهودى أو نصرانى فانه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فانه لا يفتن وعليه الجزية) (١٦) .

(١٢) سورة مائدة : آية ٢٨ .

(١٣) سورة الأعراف : آية ١٥٨ .

(١٤) أرنولد : الدعوة الى الإسلام : ترجمة حسن إبراهيم وآخرون ، القاهرة

١٩٤٧ ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(١٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٩١ .

(١٦) نفس المصدر : ص ٨٠ .

كما أرسل الى المتوقس حاكم مصر من قبل هرقل امبراطور
 بيزنطة كتابا مع حاطب بن ابي بلتعة جاء فيه : (من محمد رسول
 الله الى المتوقس حاكم مصر من قبل هرقل عظيم القبط ، سلام على
 من اتبع الهدى ، اما بعد فاني ادعوك بدعاية الاسلام ، اسلم تسلم
 يؤتك الله اجرک مرتين ، فان توليت فعليك اثم القبط ، يا اهل الكتاب
 تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به
 شيئا) (١٧) ، وتأتى بقية الكتب التى ارسلت الى نجاشى الحبشة
 وهرقل عظيم الروم وكسرى عظيم فارس بنفس الصيغة
 السابقة (١٨) وهى توضح السياسة التى اتبعها الرسول عليه
 الصلاة والسلام فى الدعوة بتنفيذ ما جاء فى القرآن الكريم من
 ضرورة نشر الاسلام بالحسنى وعدم اجبار الناس على الدخول
 فيه كما بينا من قبل . وكانت وصيته لمعاذ حين بعثه الى اليمن قال
 له : (يسر ولا تعسر ويشر ولا تنفر) (١٩) .

كذلك وضع الرسول عليه الصلاة والسلام منذ البداية الخطوط
 العامة للدعوة الاسلامية وكيفية التعامل مع غير المسلمين اثناء
 الحرب عند خروج امراء الجيش لتأمين حدود بلاد العرب الشمالية
 وتوطيد سلطان المسلمين بها بما يتفق مع ما جاء فى النص القرآنى
 فيها يخص القتال فى سبيل الله قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل
 الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (٢٠) ،
 وفيه ايضا : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (٢١)
 فعندما وقع اختيار الرسول عليه الصلاة والسلام على مولاة زيد بن

-
- (١٧) ابن عيذ الحكم : فتوح مصر واخبارها ، طبعة ١٩٢٠ ، ص ٤٦ .
 (١٨) انظر : حميد الله . مجموعة الوثائق السياسية ، وثيقة رقم ٢٦١٢٥ ،
 ص ٢٦ — ٢٩ .
 (١٩) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٧٥ .
 (٢٠) سورة البقرة : آية ١٩٠ .
 (٢١) سورة الانفال : آية ٦١ .

حارثة فى السنة الثامنة للهجرة خرج على رأس جيش عدته ثلاثة آلاف فشيّعهم رسول الله الى ثنية الوداع وأوصى أمراء الجيش بقوله : (أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيرا ، أغزوا باسم الله فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعهم الى ثلاث غايتهم ما أجابوك اليها فاقبل منهم واكف عنهم ، ادعهم الى الدخول فى الاسلام ، فان فعلوا فاقبل منهم واكف عنهم . فان أبوا فادعهم الى اعطاء الجزية ، فان فعلوا فاقبل منهم واكف عنهم فان أبوا فاستعن بالله وقاتلهم) .

(وان أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك ان تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك ، فانك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا . . وستجدون رجالا فى الصوامع معتزلين الناس فلا تترضوا لهم وستجدون آخرين على رعوسهم مفاحص فاقطعوا بالسيوف ، ولا تقتلن امرأة ولا صغيرا ضرعا ولا كبيرا فانيا ولا تفرقن نحلا ، ولا تقتلن شجرا (٢٢) ، ولا تهدموا بيتا (٢٣) ، كما تضمنت الوصية التى أوصى بها الرسول عليه الصلاة والسلام أسامه بن زيد فى حلقه على أطراف الشام نفس الروح السحرة) (٢٤) .

ومن هذه الوصايا السابقة ننبين أن سياسة الدولة الاسلامية

(٢٢) المقصود بذلك أن الشيطان استوطن رعوسهم فجعل له فيها مفاحص كمفاحص الطير انظر : القريرى ، امتاع الاسماع ، القاهرة ١٩٤١ ، ج ١ ص ٣٤٩ ، تحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة ١٩٤١ .
 (٢٣) نفس المصدر : ج ١ ، ص ٣٤٤ ، سرور ، قيام الدولة العربية الاسلامية ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٥٦ .
 (٢٤) نفس المصدر : ج ٢ ، ص ٥٣٦ - ٥٣٧ ، أوصاه بقوله أغز باسم الله فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله - أغزوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة .

فى الدعوة للإسلام كانت تقوم على أمور ثلاثة الإسلام — الجزية — الحرب ، وهذا الأمر فى حد ذاته لا يؤكد فقط ما سبق أن أسلفناه من عدم إجبار غير المسلمين على الدخول فى الإسلام ولكن أيضا يؤكد مبدأ الحرية والاختيار وقد وضحت هذه الأصول للدعوة أيضا عندما كتب الرسول عليه الصلاة والسلام الى أساقفة نجران قال فيه : (انى أدعوكم الى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم الى ولاية الله من ولاية العباد فان أبيتم فالجزية فان أبيتم أذنتكم بحرب والسلام) (٢٥) كما أوضحت الوصايا السابقة للرسول عليه الصلاة والسلام سياسة التسامح مع الضعفاء والنهى عن قتل النساء والشيوخ والذرية .

عهدود الأمان :

ويظهر تسامح الإسلام فى مواقفه الكريمة مع غير المسلمين فى عهدود الأمان التى أعطيت لهم فكانوا يقيمون فى بلادهم بناء على هذه العهدود تحت مظلة الإسلام وكان الأمان يشكل القاعدة الإسلامية الأساسية بعد دخول المسلمين البلاد المفتوحة وبمقتضى هذا الأمان أتيح لغير المسلمين بعض الحقوق والحریات وكان عهد الأمان الذى عقده الرسول عليه الصلاة والسلام لاهل نجران هو المثال الذى عقدت على منواله عهدود الأمان اللاحقة فقد نص على أن (.. لنجران وحاشيتهم جوار الله وئمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم غائبهم وشاهدهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ولا يغير أسقف ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته وليس عليه دية ولا دم جاهلية ولا يخسرون ولا يعسرون ولا يبطأ أرضهم جيشا ومن سأل منهم حقا غيبينهم للنصف

(٢٥) حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة

الراشدة ، وثيقة ٩٣ ، ص ٨٠ .

غير ظالمين ولا مظلومين ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة
ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر . (٢٦) .

كذلك وضحت نفس الروح فى بقية عهود الأمان التى كتبها
الرسول عليه الصلاة والسلام ومنها ما عقده مع أهل أيلة ذكر
فيها : (هذه آمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبه
وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد
النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر) (٢٧) .

وثمة نقطة أخرى متعلقة بعهد الأمان وموقف الاسلام من
الناكثين بالعهد من غير المسلمين قال تعالى : « (وان نكثوا أيمانهم
من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم
لعلهم يفتنون) (٢٨) » وهذه الآية وان كان سبب نزولها مبشركى
تريش فهى عامة لهم ولغيرهم (٢٩) وفيه ايضا (واما تخافن من قوم
خيانة فانذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين) (٣٠) .

وسوف يتضح هذا المنهاج فيما قام به الرسول عليه الصلاة
والسلام تجاه يهود المدينة ، فمن الثابت أن الرسول بعد أن استقر
فى المدينة وضع نظاما للحياة فيها وتضمن الكتاب أو الصحيفة عهد
اليهود ، نظمت خلالها العلاقة بين المسلمين واليهود فى المدينة
فأمنهم على دينهم وأمرهم على أموالهم ماداموا مع المسلمين ، فسمح
لهم ببعض الحقوق مع المسلمين طالما يقفون بجانب المسلمين بأن

(٢٦) أبو يوسف : الخراج ، الطبعة السادسة ١٣٩٧ هـ ، ص ٨٧ .

(٢٧) حميد الله ، الوثائق السياسية ، وثيقة رقم ٣١ ، ص ٣٤ .

(٢٨) سورة التوبة : آية ١٢ .

(٢٩) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ١٩٨٠ هـ ، ص ٣٣٩ .

(٣٠) سورة الأنفال : آية ٥٨ .

يكونوا معهم ضد أعدائهم ولا أن تجار قريش ولا من ينصرها ،
 أى أن هذا العهد بقدر إعطاء الحرية الدينية لليهود فإنه أيضا يكتل
 لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق (وأنه من تبعنا من يهود فإن له
 النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم) (٣١) .

لكن يهود المدينة قد تابعت خيانتهم ونكثهم بالعهد ، وبدأ يهود
 بنى قينقاع بعد غزوة بدر يظهرون أحقادهم وتحديهم للرسول وزعموا
 أنه لا يجرؤ على قتالهم فحاصروهم الى أن قبلوا التسليم واكتفى
 باجلائهم عن المدينة (٣٢) ، كما توترت العلاقة بين يهود بنى النضير
 وبين الرسول بعد غزوة أحد ، اذ حاولوا أن يستفيدوا من هزيمة
 المسلمين فى أحد بالفدر بهم فحاصروهم الرسول عليه الصلاة
 والسلام وأجلاها أيضا عن المدينة فى العام الرابع للهجرة . وتلا
 ذلك نكث بنى قريظة للعهد وانحيازهم الى تريش فى واقعة الخندق
 وأصبح وجودهم فى المدينة يشكل خطرا على المسلمين ، حتى بعد
 رجوع القريشيين الى مكة بعد غزوة الخندق بدأ يهود بنى قريظة
 مع القريشيين فى تأليب العرب على المسلمين فضلا عن تعاونها لهم
 أثناء الحصار فأخرجها هذا عن العهد المدون فى الصحيفة التى
 حوت أمان وعهد اليهود ، لذلك نجد أن الرسول قد حاصرها فى
 أطامها حتى طلبت التسليم وقبول تحكيم سعد بن معاذ الأوسى
 الذى حكم بقتل الرجال وسبى النساء والذرية (٣٣) .

وعلى ذلك يمكن أن نتبين أن السبب الرئيسى فى حرب
 اليهود يرجع الى اشتطاطهم فى معاملة مسلمى المدينة ونكثهم للعهد
 وخيانتهم وتحديهم السافر الذى بلغ منتهاه مما دفع الرسول عليه

(٣١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ١١٩ - ١٢٢ .

(٣٢) البلاكرى ، فتوح البلدان ، ص ٣٧ .

(٣٣) ابن هشام : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

الصلاة والسلام الى محاربتهم لأن خطرهم قد هدد الدعوة الإسلامية التي كانت لاتزال فى مهدها ومبلغ الخطورة فى أن هؤلاء اليهود كانوا يشاركون المسلمين سكنى المدينة ويظاهرون عدوهم . ومع ذلك لنا أن نؤكد أن هذه الحروب التي دفع اليها الرسول عليه الصلاة والسلام دفعا تجاه اليهود يظهر فيها أيضا التسامح فهو لم ينكل بهم مع بداية خيانتهم ونكثهم بالعهد بل اكتفى فقط باجلائهم وخروجهم بما يحملون ، وتكرر الموقف أكثر من مرة مما دفع الرسول عليه الصلاة والسلام الى أن يشتد فى رفق لأن الذين خرجوا خارج المدينة تحالفوا مع قريش وأصبحوا يشكلون خطرا يحرق بالدولة الناشئة التي كانت دائما حريصة على أن يسودها السلام ، ومع ما قام به اليهود من نقض للعهد فانهم كانوا معترفين لوفاء الرسول عليه الصلاة والسلام للعهد (٣٤) .

هذه هى الأصول التي وضعها الرسول عليه الصلاة والسلام والمستمدة من القرآن الكريم فى الدعوة للإسلام وعقد عهود الأمان مع غير المسلمين والتي ظلت المنهاج القويم الذى سار عليه خلفاء الرسول والقادة الفاتحون الذين تحملوا عبء نشر الدعوة الإسلامية شسرا وغربا .

واصلت الدولة الإسلامية بعد الرسول عليه الصلاة والسلام التوسع خارج حدود الجزيرة العربية خلال عصر الخلفاء الراشدين استمرارا لما بدأه الرسول عليه الصلاة والسلام من دعوة الملوك المعاصرين له فى بداية العام السادس وما تلاه من غزوات متتالية فى مؤتة وتبوك ، لذلك بدأ الخليفة أبو بكر الصديق بعد انتهائه من حروب الردة الى توجيه الجيوش الى الدولتين اللتين كانتا تحكمان العالم آنذاك فخرجت الجيوش الإسلامية متوغلة فى جبهتى

الفرس والروم واستطاع خالد بن الوليد أن يفتح الأراضى الواقعة
غربى الفرات وصالح أهل الحيرة (٣٥) .

واستؤنفت الفتوحات فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب فى
بلاد الشام التى كانت قد بدأت فى خلافة أبى بكر ففتحت سورية
عام ١٣ هـ / ٦٣٤ م . ثم فتحت فلسطين عام ١٥ هـ / ٦٣٦ م وبعدها
تم فتح العراق أو ما عرف بالسواد ، وخرجت الجيوش الإسلامية
شرقا وغربا واستطاع عمرو بن العاص أن يفتح مصر عام ٢١ هـ /
٦٤٢ م واتجه ناحية الغرب ففتح برقة وطرابلس اذ شملت الفترة
التي حكم فيها عمر بن الخطاب أغلب الفتوحات فى مصر
الراشدين .

كما أسهمت الدولة الأموية التى قامت عام ٤١ هـ / ٦٦٢ م
بدور كبير فى استئناف الفتوحات فى إيران تمكن الأمويون من
تثبيت الفتوحات التى تمت خلال عصر الراشدين كما تتابعت
الجهود التى قام بها الخلفاء الأمويون والتى وصلت ذروتها فى عهد
الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) فانجزت فى
عهده فتوحات كثيرة فى المناطق الطرفية والتى بدأت منذ وقت مبكر
منذ أيام الراشدين واستمرت مع الأمويين ولكن هذه الجهود لم
تتكمّل الا فى عصره فجاءت فتوحات اقليم ما وراء النهر وبلاد
السند . كذلك بلاد المغرب الذى استمر فتحها فترة طويلة وخرجت
الجيوش الإسلامية وفتحت الأندلس وكان يقوم بهذا الدور قادة
أكفاء لهم قدرات فائقة أمثال قتيبة بن مسلم فى اقليم ما وراء النهر
ومحمد بن القاسم فى السند وموسى بن نصير فى بلاد المغرب
والأندلس.

(٣٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٤٦ .

وسار خلفاء الرسول عليه الصلاة والسلام على منهاجه
القوم ، فى عدم الاكراه فى الدين فجاءت امرأة الى الخليفة عمر بن
الخطاب فى حاجة وكانت مشركة فدعاها للاسلام فابت : ففضى
لها حاجتها ، لكنه خشى أن يكون فى تصرفه هذا ما يتطوى على
اكراهها للدخول فى الاسلام ، فاستغفر الله عما فعل وقال : (اللهم
انى أرشدت ولم اكره) (٣٦) .

وقد سار القادة الفاتحون فى دعوتهم للاسلام على نفس
المنهاج فكتب خالد بن الوليد الى هرمز صاحب ثغر فارس با نصه :
(اما بعد فاسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية
والا فلا تلومن الا نفسك فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون
الحياة) (٣٧) كذلك ما قام به سعد بن أبى وقاص فدعا الدهاقين
الى الاسلام والرجوع أو الجزاء لهم والذمة (٣٨) .

واتضحت وصايا الرسول عليه الصلاة والسلام فى التسامح
مع الضعفاء والنهى عن قتل النساء والشيوخ والذرية فى تلك
السياسة التى سار عليها المسلمون ، وفى عهد الخليفة عمر بن
الخطاب كتب الى سعد بن أبى وقاص وغيره من أمراء الجيش
يوصيهم بتقوى الله وأن تنحى منازل المسلمين من قرى أهل الصلح
والذمة فقال : (لا يدخلها من أصحابك الا من تثق بدينه ولا يوزأ
أحد من أهلها شيئا فانهم حرمة وذمة ابتليتكم بالوفاء كما ابتلوا بالصبر
عليها ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح) (٣٩) .

(٣٦) على عبد الواحد وائى : بحوث فى الاسلام والمجتمع ، القاهرة ١٩٧٧ ،

ص ٧٢ .

(٣٧) حيد الله : مجموعة الوثائق السياسية ، وثيقة رقم ٩٣ ، ص ٨٠ .

(٣٨) نفسه : وثيقة رقم ٢٨٩ ، ص ٢١٧ .

(٣٩) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٤ ، ص ٥ .

كما حوت عهود الأمان التى عقدها الفاتحون نفس الروح السابقة ، وسارت كلها فى اتجاه واحد ، فنجد مثلا أن العهود التى أبرمت مع الإيرانيين قد تضمنت جميعها منح أهل الذمة الحرية الدينية ، كما أن المجوس عدوا من أهل الذمة وكانوا على قدم المساواة مع الديانات الأخرى (٤٠) ، ونلمس أيضا تلك الروح السمحة فى العهود التى أبرمت فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب فقد صيغت فى إطار واحد بنفس الجزئيات وإن تغيرت الصيغة قليلا ، ففى كثير من المدن الإيرانية أعطيت فيها عهود الأمان فى بعض الأحيان بشكل اجمالى ، بمعنى إعطاء الأمان على الأئفس والأموال وسور المدينة مع أهل قومس وجرجان وأذربيجان وطفليس وغيرها .

فتمت معاهدة خالد بن الوليد لبلاد عانت (٤١) على : (أن لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة وعلى أن يخرجوا الصليبان فى أيام عيدهم) كذلك معاهدة حنيفة بن اليمان مع أهل ماه دينار (٤٢) على (إعطاء الأمان على أنفسهم وأموالهم وأرواحهم ولا يغيرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة) .

كما سارت معاهدات الصلح فى إقليم ما وراء النهر فى نفس الاتجاه ، فقد اتيح لأهل الصامغان ودرا باز على (أن لا يقتلوا ولا يسبوا ولا يمنعوا طريقا يسلكونه) (٤٣) ، كما عقدت عهود الصلح بين قتبية بن مسلم وكثير من مدن إقليم ما وراء النهر مثل كش ونسف وإن لم تذكر المصادر صيغة هذه العهود (٤٤) . كذلك وجدنا

(٤٠) حسن محمود : الإسلام فى آسيا الوسطى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٢

(٤١) حبيب الله : المصدر السابق ، وثيقة رقم ٢٩٧ ، ص ٢٢٥ .

(٤٢) نفسه ، وثيقة رقم ٣٣٢ ، ص ٢٤٦ .

(٤٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٣٢٩ .

(٤٤) نفس المصدر : ص ٤٠ .

أن العرب فى إقليم ما وراء النهر قد استطاعوا من خلال معاملتهم الطبية مع أهالى البلاد أن يعتقدوا صداقات مع الدهاقين (٤٥) ، حتى نشأ ود متبادل بين الفريقين خلال الغارات الثغرية المتلاحقة ونتج عن ذلك أعجاب من جانب هؤلاء الوطنيين بسمات العرب وسماحتهم وكريم معاملتهم ، وهناك عدة أسماء بقيت سيرتها فى ذاكرة الناس فترة ليست بالقصيرة أمثال ثابت بن قتيبة أحد رجال عبد الله بن خازم الذى أثار احترام الناس وظلوا يذكرونه وقتنا طويلا (٤٦) .

أما عن فتح السند ، فقد استطاع محمد بن القاسم أيام الدولة الأموية أن يرتفع بالبوذيين الى مصاف أهل الكتاب ، كما ارتفعوا من قبل بالزرادشتية فى إيران ، ويعنى ذلك أن ينضم هؤلاء البوذيون الى بقية المعاهدين ويتمتعوا بكافة الحريات السابقة ، واستطاع محمد بن القاسم أن يعقد الصلح مع عدة مدن قد طلبت منه الصلح مثل البيرون وأهل ساوندى وبشمند ، كذلك اشتمل صلحه مع الرور بعد أن فتحها صلحا على أن لا يقتلهم ولا يعرض لبدنهم والتى هى بيوت عبادة البوذية ككنائس النصارى وبيع اليهود وبيوت نيران المجوس (٤٧) وهذا يؤكد أن معابدهم قد ظفرت بنفس الحرية التى أتاحت لأهل الكتاب فى ممارسة شعائرهم وحماية بيوت عباداتهم .

أما عهود الأمان التى أبرمت مع البلاد التى كانت خاضعة للبيزنطيين فى الشام ومصر فقد سارت فى نفس الاتجاه ، ففى

(٤٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ، ص ٢١٥ .

(٤٦) حسن محمود : الإسلام فى آسيا الوسطى ، ص ١٢٤ .

(٤٧) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ٤٢٦ - ٤٢٧ .

بلاد الشام أعطى خالد بن الوليد أماناً لأهل دمشق (٤٨) على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا تسكن شىء من دورهم كما نجد فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس عام ١٧ هـ / ٦٣٨ م (٤٩) نفس الامتيازات التى تتيج لأهل الذمة الحرية الدينية فضلاً عن أنها نصت على أن (لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم) كذلك شمل أمان أهل الرقة نفس الحقوق (٥٠) .

وفى مصر استطاع عمرو بن العاص أن يعقد مع من سلموا له حصن بابليون صلحاً شرط لهم فيه (أن لا تباع نسائهم وأبنائهم ولا يسبون وأن تقرر أموالهم وكنوزهم فى أيديهم) (٥١) . وفى رواية أخرى أن عمراً كتب لهم (أنهم آمنون على أموالهم ودمائهم ونسائهم وأولادهم لا يباع أحد منهم) (٥٢) أما صلح الاسكندرية فقد حوى أيضاً : (أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس القبط ولا يتدخلون فى أمورهم أى تدخل ويتاح لليهود الإقامة فى الاسكندرية) ، بهذا عومل الاقباط معاملة طيبة منذ البداية فعلى الرغم من اختلاف المؤرخين حول وضعية مصر هل فتحت صلحاً أم عنوة ، فقد طبق العرب شروط الصلح التى أبرمت مع المصريين بأمر الخليفة عمر بن الخطاب بأن يصلح أهل مصر على أساس أن بلادهم فتحت صلحاً بها فى

(٤٨) مجموعة الوثائق السياسية : وثيقة رقم ٣٥٢ ، ص ٢٦٤ .

(٤٩) نفسه : صفحات ١ وثيقة رقم ٣٥٧ ، صفحات ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٥٠) نفسه : وثيقة رقم ٤٠٣٥٨ ، وثيقة رقم ٣٥٩ ، ص ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

(٥١) نفسه : وثيقة رقم ٣٦٥ ، ص ٢٧٦ .

(٥٢) نفسه .

ذلك الاسكندرية وبعض القرى القريبة منها التى نقضت الصلح الاول (٥٣) .

وحرص عمرو بن العاص على اول خطبة القاها على الجند الذين دعاهم الى الذهاب الى الريف على مصر على ان يوصيهم بحسن معاملة الاقباط قال : (واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا) (٥٤) وهناك عدة احاديث نقلت عن الرسول عليه الصلاة والسلام توصى بقبط مصر منها (ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم منهم صهرا وذمة فمعنوا ايديكم وغروجكم وغضوا ابصاركم) (٥٥) .

لهذا قام هؤلاء القادة الفاتحون بابرام هذه المهود مع غير المسلمين ولم يكن هذا الامر وفقا عليهم ، وباعتبار ان الامان بمثل القاعدة الاسلامية الاساسية في البلاد التى افتتحها المسلمون سكان من الممكن ان يقوم بهذا الامر اذناهم وكل جندي يملك حق اعطاء الامان لغير المسلمين وذلك يكون ملزما للجماعات وعليها الوفاء ويرجع ذلك الى الخليفة عمر بن الخطاب الذى وسع هذه القاعدة فكتب الى سعد بن ابي وقاص : (فان لامب احد منكم احدا من المعجم بامان باشارة او بلسان كان لا يدرى الاعجمى ما كلمه به وكان عندهم امانا فاجروا ذلك مجرى الامان) (٥٦) ، بذلك يكون امر عمر بامضاء الامان حتى ولو كان باشارة عابرة ويأمره بالوفاء ،

(٥٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٨ .

(٥٤) السيوطى : حسن الحضرة ، القاهرة ١٢٩٩ هـ ، ج ١ ، ص ١٢ .

(٥٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٣١٢ اذ كانت هاجر زوج ابراهيم

الظليل عليه السلام وام ولده اسماعيل ، كما كانت مارية القبطية زوج الرسول عليه الصلاة والسلام من اهل مصر .

(٥٦) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٣ ، ص ٤٩٢ .

يشكل أهمية كبيرة فى إتاحة الفرصة لأهالى البلاد المفتوحة فى إبرام معاهدات الصلح .

وإذا كانت النصوص تموزنا بالنسبة لبلاد المغرب ، فلم توجد مثل هذه العهود ، لكننا نجد عهدا خاصة بفتح بلاد الأندلس التى تم فتحها فى العصر الأموى ، وان ضاعت معظم هذه المعاهدات التى عقدها المسلمون مع ما فتحوه من نواحي ، فقد بقى النص الكامل لمعاهدة عبد العزيز بن موسى مع تدميروس حاكم تدمير فضلا عن قطعة هامة من عهد موسى بن نصير لأهل ماردة أوردها الرازى فى القطعة الباقية من تاريخه فى ترجمتها الاسبانية ، نصها (فذهبوا « يريد أهل ماردة » اليه وقالوا لهم يتركون لهم ما كان لن مات ومن جرح « فى القتال بيننا وبينهم » وممتلكات الكنائس وما فيها وكذلك ما تحويه من الأحجار الكريمة وغيرها من الأشياء) . . (ولم يمس من أقام فى البلد من النصرارى بأذى وأما من أراد ترك البلد فهم يتركوه يمضى دون أذى . . .) (٥٧) .

أما الأمان الذى أعطاه عبد العزيز بن موسى لصاحب تدمير الذى أورده لنا الضبى ينص على : (أن لا ينزع عنه ملكه ولا أحدا من النصرارى من أملاكه وأنهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ولا نساءهم ولا يكرهون على دينهم ولا تحترق كنائسهم وان اشتراط عليه أنه صالح على سبع مدائن) (٥٨) .

وفى ضوء العهود السابقة التى ذكرت خلال عصر الراشدين وكذلك عصر الأمويين ، فقد تأكد لنا أنها كانت تقوم على أساس المعاملة المتسامحة مع أهالى الأديان الأخرى وإتاحة كافة الحريات

(٥٧) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٤٤٢ .

(٥٨) بغية الملتبس فى تاريخ علماء الأندلس : مدريد ١٨٨٤ ، ص ٢٥٩ .

والحقوق فأعطيت لهم الحرية الدينية في ممارسة شعائهم وطقوسهم كذلك نالوا الحرية المدنية من خلال ما أتاحه لهم المسلمون من حماية وأمان على أرواحهم وأموالهم وأنفسهم وما إلى ذلك مما يجعلهم يعيشون كيفما شاؤوا .

كما أنه لم يكف المسلمون بهذه العهود التي تبرم مع غير المسلمين مكفولة بهذه الحريات السابقة ، فوجدنا الخليفة عمر بن الخطاب حريصا على أن يلحق هذه العهود بوصايا من قبله موجهة إلى كافة القادة والولاة بأن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة وأن يوفى لهم بمعهودهم ولا يكلفوا فوق طاقاتهم (٥٩) وهذه الروح التي نصت عليها تلك العهود لم تكن مجرد اطار نظري وضع للمعاهدين ، لكنه طبق عمليا في كل البلاد المفتوحة . فيذكر أحد الدارسين (٦٠) أن سياسة التسامح الديني استمرت وقتا طويلا في إيران مع الأمويين ، كما بقيت عقود الصلح دون أن تتغير وسوف نوضح ذلك في إيران وفي غيرها من البلاد المفتوحة من خلال فصول الدراسة لقبين إلى أي حد طبق العرب هذه العهود .

أما عن موقف العرب بعد الرسول عليه الصلاة والسلام من أهالي البلاد المفتوحة وحرصهم على الوفاء بالعهد وكذلك موقفهم من الذين نكثوا العهد فنجد من الدلائل التي تؤكد حرص الخلفاء الراشدين على الوفاء بالعهد ، فيعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام جاء أهل نجران إلى الخليفة أبي بكر الصديق فكتب لهم عهدا التزم خلاله بما جاء في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام (٦١)

(٥٩) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٥٢ .

(٦٠) حسن محبوب : الإسلام في آسيا الوسطى ، ص ٢٢ .

(٦١) أبو يوسف : المصدر السابق ، ص ٧٩ - ٨٠ .

وبعد وفاته كتب لهم أيضا عمر كتابا أمنهم فيه على أنفسهم وماء
بعده رسول الله وقيل وفاته قال : (أوصى الخليفة من بعده بأهل
الذمة خيرا ، أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا
يكلفوا فوق طاقتهم (٦٢) .

كما حافظ الخليفة الثالث عثمان بن عفان على الوفاء بالعهد
فجدد لأهل نجران عهدهم مخاطبا الوليد بن عقبة عامله على العراق
جاء فيه : (واني وصيت لهم بكل أرضهم التي تصدق عليهم عمر
عقبى مكان أرضهم باليمن ، فاستوص بهم خيرا فانهم أقوام لهم ذمة ،
وكانت بنى وبينهم معرفة . وانظر صحيفة كان عمر كتبها لهم فأوفهم
ما فيها ، وإذا قرأت صحيفة فاردها عليهم (٦٣) .

كما أتوا الى على بن أبى طالب فكتب لهم كتابا ذكر فيه :
(انكم أتيتونى بكتاب من نبي الله صلى الله عليه وسلم فيه شرط
لكم على أنفسكم وأموالكم واني وصيت لكم بما كتب لكم محمد صلى
الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فمن أتى عليهم من المسلمين فليق لهم
ولا يضاموا ولا يظلموا ولا ينتقض حق من حقوقهم) (٦٤) كما شملت
عهود الأمان التي أبرمت مع البلاد المفتوحة شرط الالتزام بالوفاء
بالعهد (٦٥) .

لم نسمع عن نقض المسلمين للعهود التي أبرموها ، لأنها لازمة
لمن عقدها ولا يجوز لوال يأتى بعدهم أن يغيرها (٦٦) كما أوضحت

(٦٢) نفسه : ص ١٣٦ .

(٦٣) أبو يوسف : الخراج ، ٨٠ .

(٦٤) نفسه : ص ص ٨٠ - ٨١ .

(٦٥) مجموعة الوثائق السياسية : وثيقة رقم ٢٣٤ ، ص ٢٤٨ .

(٦٦) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٤ .

ظروف عقد الأمان مع أهل تدمير بالأنطلس ، حرص المسلمين على الوفاء بالعهد حتى بعد أن خدعوا من قبل تدمير ، فيذكر المؤرخون (٦٧) أن تدمير حينما شعر بقلّة رجاله وخطورة المسلمين أمر النساء بنشر شعورهن والوقوف مع القلّة الباقية من رجاله على أسوار حصنه وفي أيديهن الرماح مما جعل المسلمين يعتقدون أن حماية المدينة كبيرة العدد فقبلوا مبدأ التفاوض ونزل اليهم تدمير بنفسه على هيئة رسول وأخذ يفاوض عبد العزيز بن موسى واستطاع أن يعقد معه الصلح الذي ذكرناه . وبعد اتمام الصلح كشف تدمير عن شخصيته فلم يرجع المسلمون عما عاهدوا عليه .

وفيما يخص نقض العهود من قبل المعاهدين ، فأول ما يلاحظ في هذا الصدد موقف النجرائين ونقضهم للصلح الذي عقده معهم الرسول واشترط عليهم فيه أن يبقوا في مساكنهم ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ، فجاء أبو بكر وجدد لهم الصلح على ذلك فلما استخلف عمر أصابوا الربا وكانوا قد كثروا وبلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا فيما بينهم فخافهم على الإسلام فأجلاهم من نجران اليمن إلى نجران العراق (٦٨) وهذا الاجلاء لا يعد عقابا عما قام به أهل نجران بقدر رغبة عمر بن الخطاب في تنفيذ وصية الرسول عليه الصلاة والسلام وهي : لا يجتمع في جزيرة العرب دينان ، ولذلك وجدنا الفقهاء المتأخرين يضعوا شروطا لسكنى الحجاز ومنها أن لا يسقطوطنه مشرك ولا ذمي ولا معاهد (٦٩) ولذلك نقل عمر إلى الشام والعراق يهود خيبر ومسيحي دومة الجندل إلى جانب نصارى نجران (٧٠) .

-
- (٦٧) أخبار مجموعة : فتح الأنطلس ، مدريد ١٨٦٧ ، ص ١٣ .
 - (٦٨) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٧٧ .
 - (٦٩) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .
 - (٧٠) البلاذري : المصدر السابق ، ص ٣٦ .

وثمة عامل آخر يؤكد أن اجلاءهم لم يكن عقابا لهم ، وهو أن النجرائيين أتوا عمر بن الخطاب يسألونه اجلاءهم فاستحب هذا الاجلاء (٧١) كما أنه حافظ على عهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وأبى بكر معهم ونقف من خلال كتابه لهم على حقيقة هامة وهى استمرار سياسة التسامح . فكتب لهم : (من سار منهم أمن بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين وفاء لهم بما كتب لهم محمد النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه . . فمن حضرهم من رجل مسلم فليناصرهم على من ظلمهم فانهم اقوام لهم الذمة وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهرا بعد أن يقدموا ولا يكلفوا الا من منعهم البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم (٧٢) كما حرص عمر أن يعوض أهل نجران فاشترى بيوتهم وعقاراتهم واقطعهم النجرانية عند الكوفة (٧٣) .

وهناك أمثلة كثيرة لما قام به المعاهدون من نقض الصلح لفترات متتالية فأهل طبرستان بعد الصلح كانوا يؤدون مرة ويمنعون من أدائه مرة أخرى فيتحاربون ويسالون وجرى ذلك فى أيام مروان بن محمد فغدروا ونقضوا ومع قيام الدولة العباسية أرسل أبو العباس السفاح عامله اليهم فصالحوه ثم عادوا ونقضوا وغدروا وقتلوا المسلمين فى خلافة المنصور (٤) كذلك أهل رامهرمز الذين صولحوا ثم نقضوا العهد ثم غدروا (٧٥) وهناك أمثلة عديدة ذكرها صاحب فتوح البلدان يبين فيها نقض بعض المعاهدين لعهودهم .

(٧١) نفسه : ص ٧٨ .

(٧٢) أبو يوسف : الخراج ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٧٣) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٧٤) نفسه ، ص ٣٣٣ .

الجزية :

وبنفس الروح حوت عهود الأمان أيضا بعض الواجبات على أهل الذمة اتسمت بالتسامح وكانت الجزية هي الشرط الذي وضع على أهل الذمة مقابل بقائهم في الدولة الإسلامية لقاء حماية المسلمين لهم استفادا على ما نص عليه القرآن الكريم قال تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين آوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (٧٦) فثبتت بهذه الآية الكريمة تشريع الجزية على أهل الذمة التي تعنى في اللغة الجزاء والقضاء (٧٧) .

فأهل الكتاب من يهود ونصارى وان كانوا معترفين بأن الله سبحانه وتعالى واحد ، فقد كفروا بكتاب الله تعالى وهو القرآن ورسوله محمد ، ولذلك لم يبق لهم إيمان لأن تصديق الرسل إيمان بالمرسل ولذلك تجرى عليهم الجزية ليقروا بها في دار الإسلام للكف عنهم وحمايتهم (٧٨) ما خلا نصارى تغلب فقد أسقطت الجزية عن رعوسهم وضوعفت عليهم الصدقة بحكم قربهم من العدو حتى لا يظاهروا على المسلمين فصالحهم عمر بن الخطاب على أن لا يغمسوا أحدا من أولادهم في النصرانية ويضاعف عليهم الصدقة (٧٩) .

كما يجرى المجوس مجرى أهل الكتاب في أخذ الجزية وان حرم أكل لحومهم ونكاح نسائهم فقد أخذها الرسول عليه الصلاة

(٧٥) نفسه : ص ٢٧٢ .

(٧٦) سورة التوبة آية ٢٩

(٧٧) ابن منظور : لسان العرب ، ١٨ ، مادة جزية .

(٧٨) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٣ .

(٧٩) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٢٩ - ١٣٠ ، البلاذري ، فتوح البلدان ،

والسلام من مجوس هجر وتبعه الخليفة عمر بن الخطاب بعد ذلك وأخذها من أهل السواد ، وذكر عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله في المجوس : (سقوا بهم سنة أهل الكتاب) (٨٠) لذا وجدنا عهود الأمان التي كتبها القادة الفاتحون تسوى بين المجوس وأهل الكتاب ممثلة فيها كتبها حبيب بن مسلمة الأنصاري لنصارى أهل بابل ومجوسها ويهودها شاهدتهم وغائبهم منهم فيه على كل ما يخصهم من كنائس وبيع (٨١) .

وحظي أهل الذمة بحماية المسلمين وأعفوا من الخدمة العسكرية مقابل تأدية الجزية وتعهد المسلمون بالدفاع عنهم وحمايتهم ونلاحظ أصداء ذلك في معاهدات الأمان ، ففي الكتاب الذي صالحو به خالد ابن الوليد أهل الحيرة نص على : (عاهدتهم على تسعين ومائة ألف درهم وعلى الذمة . فان لم يمنعم فلا شيء عليهم حتى يمنعم) (٨٢) وكذلك معاهدته لصلوبا بن نسطونا وأهله : (انى عاهدتكم على الجزية والمنعة فان منعماكم فلنا الجزية والا فلا حتى نمنعم) (٨٣) ويضم ذلك من تفسير أبي يوسف (٨٤) لشرط الجزية التي ترتبط بالصلح على أنها مقابل حقن دمائهم وعلى أن يقاتل المسلمون من نأواهم من عدوهم والدفاع والزود عنهم .

والواقع أن هذا الاتجاه في عهود الأمان لم يلتزم بفترة زمنية معينة أو اقتص بها اقليم بعينه ، حتى يمكن أن يقال أن عهود الأمان المبكرة كان لابد وأن تحوى مثل هذا الشرط على الفاتحين حيث كانت

(٨٠) نفسه ، صفحات ١٣٩ - ١٤٠ .

(٨١) مجموعة الوثائق الانيسابية : وثيقة رقم ٢٤٦ ، ص ٢٥٨ .

(٨٢) نفسه : وثيقة رقم : ٢٦ ص ٢١٨ .

(٨٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٤ ، ص ١٦ .

(٨٤) الخراج : ص ١٢٣ .

الحماية الدينية في ذروتها أو أقليم معين خص بامتيازات معينة ولكن من الثابت أن هذا الشرط شمل معظم العهود ، كما نص كتاب الأمان لأهل ذبيل في أرمينيا (فأنتم آمنون وعلينا لهم الوفاء بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية) (٨٥) .

ولم يقف الأمر عند حد المنعة مقابل دفع الجزية ، بل يتعداه الى شروط فرضها المسلمون على أنفسهم بعدم الاغارة والدخول في أرض المعاهدين الا باذن (٨٦) ومما يؤكد ذلك أن العرب في بعض الأحيان عفوا عن أخذ الجزية من أهل الذمة الذين تعهدوا للمسلمين بأن يقوموا بواجب الدفاع الى جانبهم . وتفصيل ذلك أنه عندما تقدم المسلمون الى شمال سورية فطلب منهم أهل الجرجومة الصلح على أن يكونوا أحوانا وعميونا لهم وأن لا يؤخذوا بالجزية فقبل منهم ذلك (٨٧) وكذا عندما تقدم المسلمون ناحية قزوين عرض عامل الفرس (شهربراز) على عبد الرحمن بن ربيعة الصلح على أن لا يؤدوا الجزية قائلا : ويدى مخ أيديكم وجزيتنا اليكم والنصر والقيام بما تحبون (٨٨) .

وعندما شغل خالد بن الوليد بدفع هجوم هرقل ، رد على أهل حمص ما كان قد أخذ منهم وقال : (وقد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص لهم : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشيم) ، ثم انضموا الى المسلمين وساعدوهم ضد الروم (٨٩) .

-
- (٨٥) مجموعة الوثائق السياسية ، وثيقة رقم ٢٤٦ من ٢٥٨ ، وثيقة رقم ٢٣٨ ، ص ٢٥١ .
- (٨٦) نفسه : معاهدة أهل طبرستان وجيجلان ، وثيقة رقم ٣٣٨ ، ص ٢٥١ .
- (٨٧) البلاذري : فتوح البلبدان ، ص ١٦٤ .
- (٨٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ .
- (٨٩) المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

نخلص من ذلك الى أن فرض الجزية على أهل الذمة لا يعد عقابا لامتناعهم عن الدخول فى الاسلام ولكنها كانت مقابل الحماية لهم وتأمينهم فى دار الاسلام كما سبق أن ذكرنا ، فإذا كان المسلم يتحمل كثيرا من الاعباء باعتباره دافعا للزكاة ويؤدي الخدمة العسكرية للزود عن الاسلام ، فلا أقل من فرض الجزية على الذمى ، لذلك فهناك ارتباط بين المنعة والجزية حتى يتعادل الفريقان فى تحمل المسئولية باعتبارهما رعايا لدولة واحدة ، كما تعادلا فى التمتع بالحقوق وتساويا بالتمتع بالمرافق العامة للدولة (٩٠) .

ولم تكن الجزية ضريبة مستحدثة فى الاسلام ، ففرضها الروم من قبل على كل شخص من الرابعة عشرة الى الستين وكانوا ملزمين بها ووصلت الى عشرين درهما فى القرن الثانى الميلادى ، ولم يعف منها فى مصر سوى مواطنى الاسكندرية والروم المقيمين فى مصر وابناء الجند الاغريق وعدد من البطالة فى كل معبد ، معنى ذلك أن الأقباط هم الذين تحملوا عبء دفعها الى جانب اليهود (٩٦) ، كما كان يفرض ملوك الفرس ضريبة الرأس وكانت واجبة على كل رجل من سن العشرين الى الخمسين ، وأعفى من دون أو فوق ذلك ، وأعفى منها طبقات معينة مثل أهل البيوتات والعظماء والمقاتلة والهرابذة والكتاب ومن كان فى خدمة الملك مثل الأشراف والوجهاء ورجال الجيش ورجال الدين وموظفى الدواوين وحاشية الملك وخاصته كطبقات صاحبة امتيازات (٩٢) .

(٩٠) سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٠٨ .

(٩١) الرئيس : الخراج والنظم المالية فى الدولة الاسلامية : القاهرة ،

١٩٨٥ ، صفحات ٥٠ - ٥١ .

(٩٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك : ج ٢ ، ص ١١٢ ، نفس المرجع ،

صفحات ٧٦ - ٧٧ .

وبمقارنة ذلك بما حدث في دار الاسلام ، نجد أن هناك اختلافا كبيرا ، فلم تعف من الجزية طبقات معينة لها مصالح وثيقة بالدولة وانما كانت الاعفاءات في دار الاسلام على اساس عدم القدرة ، فكانت الجزية لا تجب إلا على الرجال العقلاء ولا تجب على صبي أو امرأة أو مجنون أو خنثى مشكل (حتى يزول اشكاله وبن رجلا أخذت منه) ، ولا تؤخذ الجزية من غير القادرين على القتال كالشيخ الكبير الذي لا يستطيع العمل ، وليس من اهل القتال ، ولا تؤخذ من المسكين الذي يتصدق عليه ، ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ولا من مقعد ، كذلك الرهبان في الاديرة وأهل الصوامع اذ كانوا يعيشون على صدقات الموسرين ، لكن هذه الاعفاءات كانت مشروطة بعدم القدرة على الوفاء بالجزية مع هذه الحالات السابقة ، أما اذا كان هؤلاء اصحاب مال ويسار ، أخذت منهم الجزية (٩٣) .

كما راعت الدولة الاسلامية تغير الاحوال من غنى الى فقر ، وكذلك تسقط عمن أسلم قبل تمام السنة ، وتسقط عن الذمى المتوفى فلا تؤخذ من ورثته لأنهم غير ضامين له ولا تؤخذ من تركته لأن ذلك ليس دين عليه على رأى أبى حنيفة (٩٤) ، الذى أسقطها باسلامه أو موته ، أما الشافعى فقد ذكر أن الذمى اذا مات أثناء الحال أو بعده لم تسقط عنه الجزية الا انه في الحالة الاولى تؤخذ من تركته بقدر ما مضى من السنة (٩٥) .

واختلف الفقهاء في قدر الجزية ، اذ أن مقدارها لم يكن ثابتا أو محددا ، فقد اختلفت حسب الزمان والمكان وارتبطت بقدرة الفرد

(٩٣) ابو يوسف : الخراج ، ص ١٣٢ .

(٩٤) نفسه .

(٩٥) الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ١٤٥ .

ما لم يحدد مقدارها في عهد الأمان بين المسلمين وأهل الذمة (٩٦) فوجدنا في عهود الأمان التي كتبها الرسول عليه الصلاة والسلام قد كانت الجزية ديناراً على كل حال (٩٧) وكان هذا هو تقدير أخذ به فيما بعد مع اتساع الدولة الإسلامية . كما أنه من الملاحظ أن السسمة الغالبة على عهود الأمان التي أبرمت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب أنها قد حوت في الغالب لفظة (على قدر الطاقة) وسبب ذلك أن الدولة الإسلامية اتسعت في عهده وضمت بين جنباتها أقاليم متفاوتة بين الفقر والغنى ولنفس السبب وضع على أهل الشام أكثر من أهل اليمن (٩٨) ، وكانت عهود الأمان الخاصة بإيران يغلب عليها عبارة (على قدر الطاقة) (٩٩) . أما بلاد الشام فكانت مقدرة بدينار على كل حال (١٠٠) كما فرض عمرو بن العاص في أول الأمر ثم وضعها عمر بن الخطاب على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق (الفضة) أربعين درهما وجعلهم طبقات لغنى الغنى واثقال المقل ولوسط المتوسط (١٠١) وعلى أهل مصر على كل حال دينارين إلا أن يكون فقيراً وعلى أهل بركة ديناراً ، أما أهل زويلة ما رأى أنهم يطبقونه (١٠٢) .

(٩٦) نفسه : ص ١٤٤ .

(٩٧) انظر يحيى بن آدم ، الخراج ، الطبعة الثانية ص ٧٠ — ٧١ ، البلاذري صفحات ٧٠ — ٧٢ مصالحة الرسول عليه الصلاة والسلام مع أهل تالة وجرش وإيلة واليمن .

(٩٨) نفسه ، ص ٨٤ .

(٩٩) في معاهدة أهل ماه بهراذان و ماه دينار واهنهان والرى وقوس واذريجان ، انظر مجموعة الوثائق السياسية ، صفحات ٢٤٦ ، ٢٥٢ .

(١٠٠) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٣١ .

(١٠١) نفسه .

(١٠٢) نفسه ، صفحات ٢١٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

وذهب الامام ابو حنيفة الى تقسيم الجزية الى اقسام ثلاثة ،
اغنياء ثمانية وأربعين درهما مثل الصيرفي والتاجر والطبيب وكل
من كان بيده صناعة أو تجارة ، أخذ منه على قدر طاقته ،
واوساط ويدفعون أربعة وعشرين درهما من أهل الصناعة والتجارة
الذين لا يحملون القيمة السابقة ومقراء يؤخذ منهم اثنا عشر درهما
على العامل بيده مثل الخياط والبصاغ والاسكافي (١٠٣) ، فهو لذلك
قسم الناس الى طبقات . كما جعلها للأقل والأكثر ومنع من اجتهاد
الولاة ، بينما تركها الامام مالك لتقدير الامام واجتهاده ، أما الشافعي
فقد ذهب الى أنها مقدرة الأقل بدينار ولا يجوز الاقتصار على أقل
منه لأنه مقدر بالشرع مما جاء في السنة ، بينما أكثرها يرجع الى
اجتهاد الوالي بحيث أن ما صولح عليه ولي الأمر من أهل المدينة
أصبح ملزما لجميعهم ولا عقابهم . كما لا يجوز للوالي بعده أن يغيره
الى نقصان أو زيادة (١٠٤) .

ويتضح من الاطار التطبيقي في تحصيل الجزية مراعاة الجانب
الانساني في تحصيلها وكذلك مراعاة التخفيف وعدم تكليف أهل
الزمة ما لا يطيقون . فقد رويت عن الرسول عليه الصلاة والسلام
عدة أحاديث بهذا الشأن منها : (احفظوني في ثمتي) (١٠٥) وقال
عليه الصلاة والسلام أيضا : (من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته
أو انتقصه أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فانا حجيجه)
كما اقتدى الخليفة عمر بن الخطاب بالسنة النبوية ، فنهى عن ضرب
أحد من أهل الزمة في استيذائهم الجزية ولا يقاموا في الشمس

(١٠٣) ابو يوسف : الخراج ، ص ١٣٣ — ١٣٤ ويفكر يحيى بن آدم أن
عمر بن الخطاب قد قسم الجزية على هذا النحو السابق ، انظر كتاب الخراج ،
ص ٦٦ .

(١٠٤) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٤ .

(١٠٥) تلمسه : ص ١٤٣ .

ولا غيرها ولا يجمعـل فى أبدانهم شىء من المكاره ، لكن يرفق بهم(١٠٦) كما أمر على بن أبى طالب بالرفق وعدم ضرب الذمى لاستيلاء الجزية ويظهر العفو فى عدم قدرة الذميين على الوفاء ، فالذى حرص عليه هو تأكيد السياسة السمحة فى التعامل معهم(١٠٧) .

وفى ضوء ذلك يمكن أن نبين موقف الخلفاء والولاة فيما يخص التخفيف ، فنجد أن الخليفة عثمان بن عفان قد خفف من أهل نجران العراق ثلاثين حلة من جزيئهم(١٠٨) ولما ولى معاوية شكاً اليه أهل نجران تفرقهم وموت من مات وإسلام من أسلم منهم ، فوضع عنهم معاوية مائتى حلة(١٠٩) . كذلك نجد أن الرغبة فى التخفيف عن أهل الذمة وعدم تكليفهم بما لا يطيقون شملت جميع الشرائع المكونة لهم مع الخليفة عمر بن عبد العزيز فقد حظى أهل الذمة بعذله الذى شمل الجميع ، فكان حريصاً على عدم إرهاق أهل الذمة وهم دافعوا الجزية وزارعوا الأرض لذلك كتب إلى عامله على الكوفة (أن قو أهل الذمة فانا لا نريدكم لسنة أولسنتين) (١١٠) وحين أراد أمراء بنى أمية أن ينساحوا فى البلدان أخذ عليهم ألا يفسدوا مع أهل الذمة(١١١) ، كما خفف من أثقال الجزية المفروضة

(١٠٦) أبو يوسف : المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

(١٠٧) يحيى بن آدم : المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(١٠٨) نفسه : ص ٨٠ ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد عرض عليهم ألف حلة فى رجب وألف حلة فى صفر مع كل حلة أوقية من الفضة ، انظر نفس المصدر ، ص ٧٨ .

(١٠٩) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٧٨ .

(١١٠) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ، القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٦٧ .

(١١١) نفسه .

(١١٢) نفسه ، ص ٦٩ .

على النصارى فى كل بلد حتى قبرص وأيلة ونجران (١١٢) ووصل التسامح أقصاه مع نصر بن سيار والى خراسان الذى عفا عن ارتد عن الاسلام من متأخرات الجزية والخراج فى اقليم ما وراء النهر (١١٣) .

وقد عمل الخليفة هارون الرشيد على تثبيت مقدار الجزية المأخوذة من أهل نجران وكتب لهم بمائتي حلة ردا على تعنت عمال الجزية ، كما أمر باعفاء العمال من جبايتها وأن يكون مؤداهم الى بيت المال ببغداد (١١٤) .

اما فى مصر . وعلى الرغم مما ذكره المؤرخون مما وقع على النصارى من بلاء أثناء ولاية قرّة بن شريك (٩٠ — ٩٦ هـ / ٧٠٩ — ٧١٥ م) ، فان أوراق البردى تشهد بأن هذه الروايات غير صحيحة . كان قرّة يهتم بعدالة حكام الأقاليم وعدم الاجحاف بأهل الذمة فيأمر عماله فى الأقاليم ألا يقدروا على أهل الذمة ضرائب فوق طاقتهم ، كما كان يهدد عماله بعقابهم أشد العقاب اذا ظلموا الأهالى فى تقدير الضرائب المفروضة عليهم ، وكان يتجاوز أحيانا عن بغض ما كان ينفذ كل عام من الجزية ، فيقبل من أهل الذمة أقل مما اعتادوا دفعه كل عام رفقا بهم (١١٥) .

وقد أبدى أحمد بن طولون ميلا حسنا نحو الاقباط ومما يؤكد ذلك وصيته لعامل الخراج أحمد بن المدبر باعفاء رهبان دير القصير

(١١٣) البلاذرى ، المصدر السابق ، ص ٤١٨ .

(١١٤) نفسه : ص ٧٩ .

(١١٥) جروهمان ، أوراق البردى العربية ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن ، عبد الحميد حسن ، القاهرة ١٩٣٤ ، الجزء الأول وثيقة رقم ١٤٩ ، ص ١٤ ، وثيقة رقم ١٥٣ ، ص ٢٧ ، سيدة كاشف ، مصر فى فجر الاسلام ، بيروت ١٩٨٦ ، صفحات ٢١٦ — ٢١٧ .

من الجزية (١١٦) ، ومن الثابت أن الرهبان لم يعفوا من الجزية الا اذا كانوا مقرءا يتصدق عليهم ولذلك عندما حاول الوزير على بن عيسى أن يأخذ الجزية من القساوسة والرهبان والاساقفة في مصر ، سار فريق من الرهبان الى العراق حيث رفعوا شكواهم الى الخليفة المقتدر العباسي عام ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م فأمر باعفائهم منها (١١٧) .

ونفس الشيء يقال عن المواعيد المقررة للجزية ، فهي لا تجب على اهل الذمة في السنة الا مرة واحدة بعد انتقضائها بشهور هلالية كما هو متبع في تحصيل اموال الزكاة (١١٨) وان كانت تؤخذ أحيانا على اقتساط ستة أو خمسة أو أربعة أو ثلاثة أو على قسطين كما فرضت في العراق في أول الأمر في كل شهر (١١٩) ، وذلك لارتباطها بعتاء الجند الذين كانوا يتقاضونه شهريا وكذلك كان الحال في الانطلس خلال القرن الثالث الهجري (١٢٠) . وفي القرن الرابع الهجري أمر الخليفة الطائع لله العباسي عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م بأن تؤخذ الجزية في محرم من كل سنة من اهل الذمة بحسب منازلهم (١٢١) وكان لا يجوز للامام تحصيل الجزية قبل ميعادها (١٢٢)

(١١٦) البلوي : سيرة أحمد بن طولون ، حقتها وعلق عليها محمد كرد علي ، دمشق ١٩٣٩ .

(١١٧) ابن البطريق ، التاريخ المجمع على التحقيق والتصديق ، بيروت

١٩٠٩ ، ص ٥١٧ .

(١١٨) الموردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٤٥ .

(١١٩) يحيى بن آدم : الفرج ، ص ٧٥ .

(١٢٠) مقل : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، بيروت ، الطبعة

الخامسة ص ٩٨ .

(١٢١) نفسه

(١٢٢) ابن القيم الجوزية : أحكام اهل الذمة ، نشره صبحي الصالح ،

دمشق ١٩٦١ م ، ج ١ ، ص ٢٩ .

وكان يراعى عدم قبول ميثمة ولا خنزير ولا خمر فى الجزية ، فقد
نهى عمر بن الخطاب عن ذلك (١٢٣) وكانت العادة جارية باعطاء
براءة مكتوبة عند اداء الجزية حتى الربع الاول من القرن الرابع
الهجرى (١٢٤) .

وبديهي أن تكون الدولة الاسلامية حريصة على أن تحقق
صفتى العدل والصلاح فيمن يقوم بجباية الجزية لتكتمل فى النهاية
منظومة الجزية التى قامت على أساس التسامح من جميع النواحي
فى فرضها وتخفيفها وطرائق جبايتها ، فنجد خالد بن الوليد عند
شرطه مع أهل الحيرة لجباية ما صالحهم عليه أن يؤدى الى بيت
مال المسلمين من خلال عمال منهم يقومون بهذا الامر ولهم الحق فى
طلب أعوان من المسلمين ويتحمل بيت المال هذا العبء (١٢٥) .

وحرص القاضى أبو يوسف على أن تتضمن نصائحه الى
الرشد تعيين رجال من أهل الصلاح والخير والثقة فى كل مصر ،
وأن يكون معهم أعوان يجمعون اليه أهل الأديان ليأخذ منهم على
الطبقات (١٢٦) ، كذلك وجدنا الخليفة الطائع يتخير مما له من أهل
الأمانة والنزاهة (١٢٧) .

وفى مصر فى عصر الولاة نجد أن الوالى يصدر تعليماته الى
صاحب الكورة فيها يخص الجزية فيأمره أن يجمع رؤساء كل قرية

(١٢٣) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٢٧ .

(١٢٤) المسعودى - مروج الذهب ، بيروت ١٩٨٣ ، ج ٣ ، صفحات

١٤ - ١٥ .

(١٢٥) حيد الله : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٢٠ .

(١٢٦) أبو يوسف : المعسر السابق ، ص ١٣٣ .

(١٢٧) الطغشندى : صبح الامشى فى صناعة الانشا ، طبعة دار الكتب ،

ج ١٢ ، ص ٣٦٨ .

وذوى النفوذ ليختاروا رجالا اكفاء لتقدير الجزية على كل قرية بقدر استطاعتهم وأن يتم ذلك تحت اشراف مساحب الكورة ، وكان ينفذهم بأنه اذا حملت جزية فوق طاقتها أو أقل مما يجب من الضرائب فانه سيعاقب هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب (١٢٨) وقد كان الجباة — فى الغالب — من أهل الذمة انفسهم باعتبار أن وظائف الدولة لاسيما المالية تركت فى ايديهم .

وبدأت أهمية الجزية تتضاءل بمرور الزمن ، فبعدها كانت تمثل أحد ابواب الدخل الرئيسية فى صدر الاسلام ، بدأ يقل مقدارها نتيجة لدخول أهل الذمة فى الاسلام على اثر المعاملة المتسامحة والامتيازات التى نالوها وهم ذمة ولذلك أصبحت الجزية فيها بعد تسمى جوالى ربما من بداية القرن الرابع الهجرى مع خلافة الطائع العباسى ، كذلك وجدناها فى الدولة الفاطمية فى مصر وكان لها ديوان خاص بها عرف بديوان الجوالى (١٢٩) .

وعن سياسة ختم الرقاب التى اتبعت فى بعض الأحيان لجباية الجزية ، فهذا الأمر لا يعد اضطهادا ، وكان الغرض منه هو التمييز بين من أدى الضريبة ومن لم يؤدها ، ومن المعلوم أن العرب لم يستحدثوا ختم الرقاب، انها اصطنعه البيزنطيون فكانوا يقومون بختم رقاب الجميع بأختام من رصاص (١٣٠) .

خلاصة القول ، أن الجزية فرضت على أهل الذمة لقاء حمايتهم فى دار الاسلام ، ولم تكن مرهقة لهم ، كما روى فى

(١٢٨) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٦٦ .

(١٢٩) الطقشندى ، صبح ، ج ٢ ، ص ٤٩٦ .

(١٣٠) توتون : أهل الذمة فى الاسلام : ترجمة وتعليق د . حسن حبشى ،

القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٢٩ .

جبايتها الجانب الإنساني ولا يمكن مقارنتها بما كان يحصل عليه
الذميون من امتيازات وحقوق ، وبما كان يفرض عليهم قبل الإسلام .

الخـراج :

ومن الضرائب الأخرى المفروضة عليهم أيضا ، الخراج وهي
ضريبة الأرض التي يدفعونها على ثمارهم وزروعهم لقاء استغلالها .
وأن غلب عليها في بداية الدولة الإسلامية كلمة جزية أو شملت
هذه الكلمة الجزية والخراج معا ، حقيقة لقد ظهرت في بعض عهود
الامان المبكرة في الشام (١٣١) في خلافة أبي بكر وأن تحدد في
خلافة عمر بن الخطاب لكل لفظ معناه ، فتختص كلمة جزية بما يدفعه
الشخص عن نفسه وكلمة خراج بما يرد من الأرض (١٣٢) .

والخراج يختلف عن الجزية في ثلاثة أوجه ، منها أن الجزية
نص وأن الخراج اجتهاد ، وأن أقل الجزية مقدر بالشرع وأكثرها
بالاجتهاد ، والخراج أقله وأكثره مقدر بالاجتهاد ، كما أن الجزية
تؤخذ مع بقاء الكفر وتستقط بدخول الإسلام والخراج يؤخذ مع الكفر
والإسلام (١٣٣) والمقصود بأرض الخراج هي أرض المعجم التي فتحت
عنوة وتركها الإمام بين أيدي أهلها وكذلك أرضهم التي صالحوا
المسلمين على أن يؤدوا الخراج عنها ويصيروا ذمة (١٣٤) ، استنادا

(١٣١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٤٤ ، أعطى عمرو بن العاص الامان
لاصل سبسية ونبلس على انفسهم وأبوالهم ومنزلهم ، وعلى أن الجزية على
رعايهم والخراج على أرضهم .

(١٣٢) الرئيس : الخراج والنظم المالية في الدولة الإسلامية ، ص ١٢٧ .

(١٣٣) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٢ ، فمن أسلم من أهل الصلح
رفعت الجزية عن رأسه وكان الخراج على أرضه على حاله ، انظر ، يحيى بن آدم

الخراج ، ص ٢٥ .
(١٣٤) أبو يوسف : الخراج ، ص ٧٥ .

الى تشريعات الخليفة عمر بن الخطاب الذى لم يقسم الاراضى على الفاتحين وتركها لاهالى البلاد ، لانه لم يرد أن يشغل جنده بالزراعة عن الجهاد (١٣٥) .

وقد قام الخليفة عمر بن الخطاب بوضع الوظائف الخراجية على سواد العراق بما تحتله الاراضى ، واعتبر الفقهاء السواد الاصل الذى يقاس عليه نظائره (١٣٦) وقد حوت بعض عهود الامان كلمة الخراج اما اجمالا او بشكل ضمنى ، لاسيما فى العهود الخاصة بايران (١٣٧) ، لكنها جاءت مستقلة ومفصلة فى عهود الامان الخاصة بالشام ومصر ومع بداية فتوحات الشام كان الخراج جريبا ودينارا مثلما قرر فى مصالحة خالد بن الوليد لاهل بصرى ودمشق بالاضافة الى زيت وخل لقوت المسلمين ، ثم كتب الخليفة عمر بن الخطاب الى امراء الاجناد أن يضربوا الجزية على اهل الورق اربعين درهما وعلى اهل الذهب اربعة دنانير وعليهم من ارزاق المسلمين مدان حنطة وثلاثة اقساط زيتا كل شهر لكل انسان بالشام والجزيرة (١٣٨) .

وفى الصلح الذى عقده عمرو بن العاص مع اهل مصر ، جعل على كل جريب ديناراً وثلاثة ارباب حنطة وفى رواية اخرى

(١٣٥) نفسه : ص ٢٧ .

(١٣٦) نفسه : ص ٢٨ - ٣٩ ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، وضع على جريب اثنى عشر درهما وقيظا ، وعلى اناكهم عشر دراهم وعلى جريب الحنطة اربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين .

(١٣٧) انظر مجموعة الوثائق السياسية ، معاهدة اهل طبرستان وهرات وروى الروض صفحات ٢٥١ ، ٢٥٥ .

(١٣٨) البلاذرى : فتوح ابلدان ، ص ١٣١ والجريب يساوى بالنسبة للعدان المصرى الحالى بنسبة ١ : ٣٧ تقريبا وكل فدان يساوى ثلاثة اجربة وكسر قليل - انظر الرئيس المرجع السابق .

ذكرها البلاذرى (١٣٩) أن أهل مصر صولحوا فى الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والعسل والخل على دينارين فالزم كل رجل أربعة دنائير فرضوا بذلك ، وكانت الضريبة التى تدفع عينا يطلق عليها فى أوراق البردى (ضريبة الطعام) (١٤٠) ومن الملاحظ أن ضريبة الخراج كانت تدفع نقدا وعينا . وفى الأندلس صالح عبد العزيز بن موسى أهل تدمير على دينار وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أمداد خل وقسط عسل وقسط زيت (١٤١) .

وبديهى أن تعم روح التسامح فى فرض الخراج أيضا ، فقد لمسنا آنفا أنه روعى فى فرض الجزية قدر الطاقة ، كذلك نجد أن فرض الخراج قد روعى فيه ما تحمله كل أرض ، لذلك اختلف تقديره بحسب النواحي كما كان يراعى فى تقدير الخراج كمية المحصول التى تنتجها الأرض وحالة الأرض إذا كانت عامرة أو غامرة (١٤٢) . ويتضح ذلك فى مراعاة عمرو بن العاص فى عهده لأهل مصر بحالة النيل من نقصان أو زيادة (١٤٣) .

كما كان المسلمون حريصين على عدم تكليف أهل الخراج ما لا يطيقون متبعين نفس المنهاج فى معاملة أهل الذمة . فقد كانت المصلحة هى الأساس فيما يؤديه أهل الذمة الى المسلمين ، فان عجزوا عن ذلك ، فيخفف عنهم وان احتملوا مما صولحوا عليه فلا يزداد عليهم (١٤٤) . لذلك وجدنا الخليفة عمر بن الخطاب حريصا

(١٣٩) نفسه : صفحات ٢١٦ - ٢١٧ .

(١٤٠) سيده كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص ٥٧ .

(١٤١) الضبى ، بنية الملتبس ص ٢٥٩ ، والذ يساوى ٥ رطل بغدادى

أو ١٢ رطل مصرى . القسط يساوى ١٣٧ لتر انظر الرئيس المرجع السابق

صفحات ٣١٩ ، ٢٢٠ .

(١٤٢) الماردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٨ .

(١٤٣) سيده كاشف : المرجع السابق .

(١٤٤) يحيى بن آدم : الخراج ، ص ٢٤ .

على عدم تكليف الرعية ما لا يطيقون ولما ورد عليه عثمان بن حنيف وحنيفة عامله على العراق ، قال لهما : (لعلكما حملتما الأرض ما لا تطيق) فقاتل عثمان : (حملت الأرض أمرا هي له مطيقة ولو شئت لأضعفت) (١٤٥) وحتى يتأكد من جباية هذه الأموال بالعدل كان يخرج مع خراج العراق كل سنة عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله أنه طيب ، ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد (١٤٦) .

ومن نفس المنظور ، وجدنا الخليفة عمر بن الخطاب حريصا على عدم الاضرار بأهل الذمة ، فكتب الى أبى عبيدة يأمره بمنع المسلمين من ظلم أحد من أهل الذمة بمعنى أنه لا يحل لمسلم ان يتعمد الاضرار بجاره ولا بالقصد لتفريق أرضه أو تحريق ثماره ، أسوة بالرسول عليه الصلاة والسلام (١٤٧) كذلك يأمر قائده عندما نزل البصرة بعدما اذن لهم بالزراع الا تكون أرضا عليها جزية من أرض الاعاجم أو يصرف اليها ما، أرض عليها الجزية ولا تعرض لها الا بخير (١٤٨) .

كما المحنا من سيرة الخليفة عثمان بن عفان حرصه على هذا المنهاج ، فأول كتبه وجهت الى عمال الخراج : (خذوا الحق ، وأعطوا الحق ، الأمانة قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها .. والوفاء .. الوفاء ، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فان الله خصم لمن ظلمهم) (١٤٩) وأوصى على بن أبى طالب عامله على عكبراء قائلا : (ولا تضربن أحدا منهم سوطا واحدا في درهم ولا تقمه على رجله

(١٤٥) أبو يوسف : الخراج ، صفحات ٥١ - ٥٢ .

(١٤٦) نفسه : ص ١٢٤ .

(١٤٧) نفسه ، ص ١٠٧ . نقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الضرار وقال (ملعون من ضار مسلما أو غيره ملعون) .

(١٤٨) حبيب الله ، مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٥٤ ، كان في البداية

لا يفرق بين الجزية والخراج وكانت كلمة الجزية تشمل الاثنين معا .

(١٤٩) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٤ صفحات ٢٢٤ - ٢٤٥ .

فى طلب درهم ولا يتبع لأحد منهم عرضاً من الخراج ، فانا انما أمرنا أن نأخذ منهم العفو) (١٥٠) أما الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ / ٧١٧ — ٧١٩ م) فسياسة الإصلاحية شملت أهل الذمة أيضاً ، فقد ألغى الزيادات التى كانت تؤخذ منهم قبل عهده من أهل الخراج فضلاً عن إلغاء هدايا النيروز والمهرجان (١٥١) كما نهى عن أن يضرب الناس فى جباية الخراج رداً على كتاب عدى بن أرطاة عامله على البصرة بعدم تأدية بعض الناس لما عليهم من الخراج حتى يمسسهم شيء من الخراج ، فكتب إليه عمر : (وإذا أتاك كتابى هذا ، فمن أعطاك ما قبله عفواً والا فاعطه ، فوالله لأن يلقوا الله بجناياتهم أحب الى من أن القاه بعذابهم) (١٥٢) .

ولم يقف الأمر عند ذلك ، فقام الخليفة عمر بن عبد العزيز بالتخفيف من أهل الخراج بصفة عامة وقرر إسقاط الكسور عنهم وهى بقايا الأموال الناتجة عن الفروق فى العملة (١٥٣) ولم يكن عمل عمر بن عبد العزيز فى عزل أسامة بن زيد صاحب خراج مصر عام (٩٦ — ٩٩ هـ / ٧١٥ — ٧١٨ م) إلا مؤازرة وتسامحاً للقيط ، فقد اشتد أسامة فى جباية خراج مصر (١٥٤) .

كما أهتم المنصور العباسى بتنظيم ديوان الخراج وجعله تحت إشرافه المباشر ، وحرص على ألا يتولى وظائف الخراج إلا من عرف بالكفاية ونزاهة اليد كما اشترط فى هؤلاء الموظفين الأمانة

(١٥٠) أبو يوسف ، المصدر السابق : صفحات ١٦ — ١٧ .

(١٥١) نفسه ، ص ٩٢ .

(١٥٢) نفسه : ص ١٢٩ .

(١٥٣) المؤردى : الأحكام السلطانية ، ص ٨١ لمزيد من التفاصيل انظر

الرئيس : الخراج والنظم المالية صفحات ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(١٥٤) الجيهشيارى ، كتاب الوزراء والكتب ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٥٢ .

والتفتة فى أمور الدين (١٥٥) . كذلك ما حدث من اصلاح فيما يخص
العدول عن نظام المساحة الى نظام المقاسمة فى عهد المهدي والذي
تحقق من ورائه فوائد كثيرة قد شملت أهل الذمة أيضا (١٥٦) .

وتضمنت نصائح القاضى أبى يوسف (١٥٧) للخليفة الرشيد
حلولاً عملية للإصلاح الاقتصادى ومنها : اتخاذ قوم من أهل الصلاح
لتوليتهم على الخراج ولا يضرين رجلاً فى درهم خراج ، وأن يؤخذ
منهم بالعفو وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقاتهم فقال له : (ويجب على
من وليت أن لا يكون عسوفاً لأهل عمله ولا محتقراً لهم ولا مستخفاً
بهم وعليه اللين للمسلم والغلظة على الفاجر والعدل على أهل
الذمة وأنصاف المظلوم) .

وظلت الرغبة فى التخفيف عن أهل الذمة مستمرة فى العصر
المباسبى الثانى ، فعندما شكوا أهل احدى القرى من كورة نابلس
وهم سامرة ضعفهم وعجزهم عن أداء الخراج على خمسة دنائير ،
أمر الخليفة المتوكل بردهم الى ثلاثة دنائير (١٥٨) .

كما شملت عهود الصلح مع غير المسلمين فى البلاد المفتوحة
بعض الأمور الواجبة منها مادية مثل ارشاد ابن السبيل واصلاح
الطرق وبناء الجسور وأن يضيفوا من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام

(١٥٥) الطبري : تاريخ الامم والملوك ، ج ٩ ، ص ٣ .

(١٥٦) أبو يوسف ، المصدر السابق ، ص ٥٤ . ونظام المساحة لايرامى
فيه الحصول أو أسلوب الزراعة فى جباله الضرائب لما نظام المقاسمة بمقتضاه
تقاسم الدولة المزارعين وفق نسب معينة دون النظر لمساحة الأرض ويراعى فيه
أسلوب السقي . المزيد من التفصيلات انظر نفس المصدر .

(١٥٧) نفس المصدر ، صفحات ١١٤ - ١١٥ .

(١٥٨) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٣٣ .

من أواسط طعامهم (١٥٩) ، كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة المسلمين مما يأكلون ولا يكلفهم نبح شاة ولا دجاجة وتبيت نوابهم من غير شفير وقد أعفى أهل المدن من واجب الضيافة (١٦٠) وكان عليهم أيضا أن يوقدوا النيران للجند الفاتحين ولا يملأوا على عورة المسلمين وأخرى معنوية منها ألا يسبوا مسلما ولا يقتلوا ولا يعتدوا ، والا تكون ذمة المسلمين منهم بريئة (١٦١) .

نخلص من هذا العرض السابق الى أن عهود الأمان قد أتاحت كافة الحريات الدينية والمدنية والتي لم تتح لهذه الشعوب قبلا وارتبطت هذه الحريات أو الحقوق بشرط الجزية الذى روعى فيه دائما التخفيف ، كذلك قد تقرر لغير المسلمين بمقتضى الصلح حياة أراضيهم مقابل دفع ضريبة الخراج وإذا كانت هناك بعض الواجبات المفروضة على أهل الذمة فهى لا يمكن أن تقارن بما تتيجها الدولة الإسلامية لهم من امتيازات أقلها التمتع بمرافق الدولة وحتى بالنسبة لضيافة جند المسلمين يتضح منها الفرق ، أما الشروط الأخرى من منعهم من الغش وغيره فهى أمور طبيعية مرتبطة بمساكنة أهل الذمة للمسلمين على أرض واحدة ولذلك فعدم الالتزام بصيانة المسلمين وما الى ذلك تجعل عهد الذمة منتقضا فى حين أن الجزية التى تعتبر شرطا لحماية الذمى فعدم الوفاء بها لا يعد نقضا للعهد كما أسلفنا .

(١٥٩) مجموعة الوثائق النيسابية ، وثيقة رقم ص ٢٤٦ ، رقم ٣٣٦ ، ص ٢٤٩ ، أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٥٥ وما بعده .
 (١٦٠) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، صفحات ١٤٤ - ١٤٥ .
 (١٦١) انظر المصدر السابق : وثيقة رقم ٣٥٣ ص ٢٦٥ ، معاهدة أبى عبيدة لاهل دمشق ، معاهدة عياض لاهل الرقة وثيقة رقم ٣٥٩ ، ص ٢٧٠ .

عقد الذمة وشروطه :

ولما كانت الأمور عادة تنشأ ثم يوضع لها إطار بعد أن تكتمل عبر القرون لهذا كان حال هذه الشروط التي حوتها عهود الأمان ، فقد أعيدت صياغتها من قبل فقهاء المسلمين وأصبحت شروطا واجبة وضعت في قالب قانوني صاغه الفقهاء في مرحلة لاحقة ومنهم القاضي أبو يوسف (١٦٢) الذي قدم نصائحه للرشيد في هذا الشأن فيما ينبغي أن يكون عليه أهل الذمة فيها يميزهم عن المسلمين في الزى وما يجب اتباعه في بناء الكنائس وما إلى ذلك وإذا كان أبو يوسف قد عاش في القرن الثاني الهجري ، فالماوردي الذي عاش خلال القرن الخامس الهجري قد وضع الإطار النهائي لمعاملة غير المسلمين ضمنها كتابة الأحكام السلطانية (١٦٣) شروط مستحقة وشروط مستحبة على أهل الذمة .

أما المستحقة فستة شروط :

- ١ - ألا يذكرُوا كتاب الله بظمن فيه ولا تحريف .
- ٢ - ألا يذكرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكذيب له ولا ازدراء .
- ٣ - ألا يذكرُوا دين الإسلام بظمن ولا تدح فيه .
- ٤ - أن لا يصيبوا مسلمة بظن ولا باسم نكاح .
- ٥ - ألا يعينوا أهل الحرب ولا يودوا أغنياءهم .
- ٦ - ألا يفتنوا مسلما عن دينه أو يتعرضوا لماله أو دمه .

(١٦٢) الخراج : ص ١٣٧ .

(١٦٣) ص ١٤٥ .

هذه الشروط ملزمة فإذا نقضوها انتقض عهدهم .

وأما المستحبة فهي ، أيضا ستة شروط :

- ١ — لبس الغيار وشد الزنار .
- ٢ — ألا تعلق أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم .
- ٣ — ألا تعلق أبنيتهم فوق أبنية المسلمين ، ويكونوا ان لم ينقصوا مساوين لهم .
- ٤ — ألا يجاهروهم بشرب خمرهم ولا باظهار صلبانهم وخنازيرهم
- ٥ — أن يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بنصب عليهم ولا نياحة .
- ٦ — أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقا وهجانا ولا يمنعوا من ركوب البغال والحير .

وهذه الشروط الستة المستحبة لا تلزم بعقد الذمة ولا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضا للعهد ، لكن يؤخذون بها اجبارا ويؤدبون عليها زجرا ، ولا يؤدبون ان لم يشترط ذلك عليهم .

وهذه الشروط السابقة تستند الى ما اصطلح على تسميته بالشروط العبرية التي استهدفت تنظيم المجتمع الاسلامي في عصره واظهار ما في الاسلام من عزة ويبدو أن تلك الشروط ظلت مجهولة لفترة ولم تظهر الا في أواخر القرن الثاني الهجري (١٦٤) ويرى أحد الدارسين (١٦٥) أن العهد العبري وثيقة ظاهرة الوضع ويضيف أن كتب الفقه والنظم الاسلامية لا تمثل الوضع في صدر

(١٦٤) قاسم عبده قاسم : أهل الذمة في مصر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٢٧ .
(١٦٥) حسين مؤنس : فجر الاندلس ، ص ٤٣٩ — ٤٤٣ .

الاسلام ولا فى العصور التى كتبت فيها وانما كانت تمثل أماني مؤلفيها .

ولا يستبعد أن تكون هذه الشروط التى نسبت الى الخليفة عمر بن الخطاب ترجع الى عهده ولكنها لم تصغ الا فى فترة متأخرة فيما بعد ، ومن الثابت أن عمر بن الخطاب قد سسن كثيرا من التشريعات للدولة الاسلامية ويدهى أن يحتل أهل الذمة جزءا من هذه التشريعات ، كذلك فقد تضمنت هذه الشروط ما وجد فيه جهود الأمان التى تمت فى عهده وعلى هذا فان الأصل فى تنظيم حياة أهل الذمة قد بدأ مع عمر بن الخطاب ثم أعطى الفقهاء الاطار النظرى لهذه المعاملة فى وقت متأخر مدفوعين برغبة جامعة فى حماية الاسلام ، مما يدل على حرصهم على تأكيد مثل هذه الشروط لأن أهل الذمة لم يلتزموا بها وكانت تصدر الأوامر من وقت لآخر من قبل الخلفاء لقرزم أهل الذمة بها أى أن هذه الشروط بالفعل كانت مثار للجدل خلال العصور المختلفة .

وتفصيل ذلك ، أن الشروط العمرية ، ترجع الى شروط رضى بها أهل الذمة فى عهود الأمان فى الشام ومصر وأرسلوا بها كتابا الى الخليفة عمر بن الخطاب يؤكدون فيه ما عاهدوا المسلمين به من التزام الحدود ويعقبه زيادات من الخليفة عمر .

(ونص هذا الكتاب على (١٦٧) : (لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا على أنفسنا أن لا نحدث فى مدائننا ولا نبيها حولها ديرا ولا كنيسة ولا صومعة رآهب ، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان فى خطط المسلمين وأن

(١٦٧) ابن الاخرة ، معجم القرية فى احكام الصبة ، القاهرة ص ٩٢ ، ابن القيم الجوزية ، احكام أهل الذمة ، ج ٢ ، صفحات ٦٥٩ - ٦٦٢ .

توسع أبوابها للمارة ولبنى السبيل ، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ، ولا نأوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوسا ، ولا نكتم عينا للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شرعنا ولا ندمو اليه أحدا ، ولا نمنع أحدا من نوى قرباننا الدخول فى دين الاسلام أن أرادوا ، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم فى مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم فى شىء من ملابسهم فى قلنسوة ولا عمامة ، ولا نقسمى بأسمائهم ، ولا نفتكى بكناهم ، ولا نركب بالسروج ، ولا نقتلد السيوف ، ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ، وأن نجز مقدم رعوسنا ، ونلزم زينا حيث كنا ، وأن نشد الزنانيير على أوساطنا ولا نظهر صلباننا ولا نفتح كنفنا فى طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب بنواقيسنا فى كنائسنا فى شىء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعائنا ولا طاغوتنا ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نوقد النيران فى طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين ، ولا نطلع فى منازلهم ، ولا تملو منازلنا منازلهم ، (فلما اتيت أمير المؤمنين عمر بالكتاب زاد فيه : ولا نضرب أحدا من المسلمين ، شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا فى شىء مما شرطناه لكم علينا وضمناه عن أنفسنا وأهل ملتنا ، فلا ذمة لنا عليكم ، وقد حل بنا ما حل بغيرنا من أهل المعاندة والشقاق) .

وغالى بعض المؤرخين (١٦٨) فى ذكر هذه الشروط تفصيلا لاسيما الخاصة بملابس أهل الذمة للتمييز بينهم وبين المسلمين ، (فعليهم أن يلبسوا خلاف لباس المسلمين ليعرفوا به ، اللون الأصفر لليهود على رعوسهم ويشد النصارى الزنانيير فى أوساطهم

نوق الثياب ، والتمييز يحدث بأحد أمرين ، لو شرط عليهم الغيار والزنا جميعا أخذوا به ويكون في رقابهم خاتم من رصاص أو نحاس يدخل معهم الحمام ليميزوا به . وأن يلبسوا العمام والصلبان والمرأة تشد الزنا تحت الأزار ويكون في عنقها خاتم يدخل معها الحمام ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض لتمييزها عن غيرها) .

هذه الشروط السابقة تضمنت عدة نواه والزام فيها يخص الملابس أو ما عرف بالغيار ، كذلك ما يخص عدم بناء الكنائس وعدم ركوب الخيل ولناقشة هذه الشروط في ضوء الممارسات الفعلية نستطيع أن نقف على حقيقتها .

وفي البداية لنا أن نقرر أن الغيار لم يفرض على أهل الذمة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام (١٦٩) ، كما لم تحو عهود الأمان التي أبرمت شرقا وغربا من خلال القادة الفاتحين مثل هذه الشروط الا في شرط خالد على أهل الحيرة (١٧٠) (ولهم كل ما لبسوا من الزي الا زي الحرب) ، ولم يوجد الا في العهد العبري السابق الذكر ، وهذا التمييز في حد ذاته أمر مقبول ، لأن المسلمين وهم الفاتحون والقائمون في الأمصار الإسلامية ، فهم جميعا في حكم الجنود يلبسون ملابس الحرب وفي نفس الوقت عاش أهل الذمة في كنف هذه الدولة الناشئة والتزموا بواجبات معينة يؤدونها إلى المسلمين ، فمعنى التشبه بالمسلمين الهروب من الالتزامات المفروضة عليهم من خلال العهود المبرمة ونفس الشيء فيها يخص منعهم بالافخذوا شيئا من السلاح وكذلك منعهم من ركوب الخيل لانها من آلات الحرب في هذه الفترة لأن حمايتهم مكولة من قبل الدولة الإسلامية مقابل دفع الجزية كما سبق أن أسلفنا .

(١٦٩) ابن القيم الجوزية : احكام أهل الذمة ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

(١٧٠) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٥٦ .

ويرى أحد الدارسين (١٧١) أن هذا التمايز لم تكن له ضرورة في بداية الفتوحات الإسلامية لأن العرب كانوا متمايزين بملابسهم عن أهالي هذه البلاد ولكن يمتد الوقت بدأ المسلمون يتجهون ناحية الأخذ بمظاهر الترف والرفاهة من جهة ، كما أن بعض أبناء البلاد المفتوحة أخذوا يحاكونهم في مظهرهم شأن الشعوب المغلوبة في محاكاة الفاتحين وهكذا نشأت الحاجة لتمييز المسلمين عن غيرهم في ذلك الوقت . مما يؤكد أن العهد العمرى بصورته التقليدية لم يظهر إلا في أواخر القرن الثاني الهجرى .

وعلى ما يبدو فإن تلك الشروط المتعلقة بزيمهم لم يلزموا بها إلا في فترات قليلة ، وكانت الأوامر التي تصدر في الدولة الإسلامية لتلزمهم بلبس الغيار وغيره تأتي كرد فعل لتسلطهم ومنها ما كتبه الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق (بالآيا ميشين نصرانى الا بفروق الناصية ويلبس ثباء ولا تمشين امرأة الا بزنا من جلود ولا يلبس طيلسانا ولا سراويل ذات خدمة ولا نعل لها عزة ولا يوجدن في بيته سلاح ، كذلك لا يركبن نصرانى على سرج ولا يركبوا بالأكف ولا تركبن امرأة من نسائهم راحلة) (١٧٢) .

وبالنظر إلى هذه الأوامر السابقة لا يمكن أن نعتبر ما أصدره عمر من أوامر شدة مستحدثة ، لكنهم كانوا قد ألزموا بهذه الشروط كما أنه من الثابت أن أهل الذمة قد عوملوا معاملة تقوم على أساس الود والاحترام ، وقد شملهم عدله ، ولكنه دفع إلى إلزامهم بهذه الشروط وهو الحريص على رفعة الإسلام .

(١٧١) قاسم ، أهل الذمة في مصر العصر الوسطى ، ص ١٥٥ .

(١٧٢) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٦٦ .

ومما يؤكد أيضا أن أهل الزمة لم يلتزموا بهذه الشروط في العصر العباسي أيضا ما نجده من حرص القاضي أبي يوسف في كتاب الخراج (١٧٣) على نصح الخليفة الرشيد بضرورة تطبيق ما فرضه عليهم الخليفة ممر بن الخطاب فيما يخص الفغار وغيره ، ولذلك وجدنا الرشيد في عام ١٩١ هـ / ٨٠٧ م يأمر بأن يؤخذ أهل الزمة في مدينة السلام (بغداد) بما يخالف هيئتهم من هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم ويأمر يجعلوا في أوساطهم الزنارات مثل الخيط وأن يجعلوا اشراك نعالهم مثنية وأن يتخذوا على سروجهم في موضع القرايبس مثل الرمانة (١٧٤) .

ولما كان أهل الزمة سرعان ما يخرجون على هذه الشروط ، فكان اصدار أوامر جديدة أمرا مقبولا ، لذلك أصدر الخليفة المتوكل في عام ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م أوامره بالزام النصارى وأهل الزمة بوجه عام بلبس الطيالس المسلية ، ومن أراد أن يلبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين ، فليجعل عليها ذرين ، وكذلك أمروا بأن يجعلوا على ما ظهر من لباس مباليكهم رقعتين لونهما يخالف لون الثوب الظاهر الذي عليه ، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره وإلاخرى خلف ظهره (١٧٥) وتلا ذلك أمر آخر من قبل المتوكل عام ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ م هو أن يقتصر أهل الزمة في مراكبهم على البغال والحبر دون الخيل والبراذين (١٧٦)

غير أن هذه الأوامر لم تستمر الا قليلا وكان أهل الزمة يابون

(١٧٣) من ١٣٧ .

(١٧٤) ابن الأثير ، الكافي ، القاهرة ١٩٨٢ ، ج ٥ ، ص ١٢٧ .

(١٧٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٩ ، صفحات ١٧١ - ١٧٢ .

(١٧٦) المعري ، الخطط ، طبعه بيروت ، ج ٢٦ ، ص ٢٩٤ .

الخُضوع (١٧٧) وكانت مغالاتهم فى الزى والركوب مما يدفع العامة الى الثورة عليهم ، مثلما حدث فى عام ٢٧٢ هـ / ٨٥٨ م عندما ثار عامة بغداد على النصارى لمخالفتهم وركوبهم الخيل (١٧٨) كذلك نجد شاعرا مثل ابن المعتز فى أواخر القرن الثالث الهجرى يشكو من مغالة النصارى فى البغال والسروج (١٧٩) ، ولم نسمع لمدة طويلة خلال العصر العباسى الثانى عن أوامر صدرت بخصوص أهل الذمة حتى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، ولذلك صدر أمر الخليفة القائم عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م بالزام أهل الذمة ملابس يعرفون بها عند المشاهدة ، ولهذا الأمر استدعى جاثليق النصارى ورأس الجالوت ووافقوا على هذه الأوامر (١٨٠) .

وفى مصر فى العصر الفاطمى والذى بلغ التسامح فيه أقصاه تجاه أهل الذمة ، فتح زيادة سطوتهم واشتطاطهم وجدنا الخلفاء الفاطميين يحذون من سـلطاتهم ، فقام الخليفة الحاكم بأمر الله بمراقبة أهل الذمة من خلال واجبات الحسبة ، كما عاد الى الشروط العمرية وزاد فيها ، وبغض النظر عما اتسمت به شخصية الحاكم وفترة حكمه بشكل عام من اضطراب وتقلب ، فان تصرفاته تجاه أهل الذمة كانت محكومة بأسباب منها : اشتداد بأس أهل الذمة على المسلمين منذ أن تمكثوا من الدولة أيام العزيز وسيطرتهم البالغة على النواحي كافة .

وبدأ الحاكم بأمر الله فى إصدار أوامره الخاصة بتمييز أهل

-
- (١٧٧) روثايل بليو إسحاق ، أحوال نصارى بغداد فى عهد الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٦٠ ، ص ١٠٣ .
- (١٧٨) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٩ .
- (١٧٩) المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٤ ، ص ٢٩٨ .
- (١٨٠) أبو الفرج الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، مصطفى عبد القادر عطا ، بيروت ١٩٩٢ ، ج ١٥ ، ص ٢٩٢ .

الذمة عن المسلمين بملابس خاصة ، وربما غلب عليها اللون الأسود من عائم وتلفيعات ، لأن اللون الأسود هو شعار العباسيين ، وجعل القبط يحملون صلبانا واليهود يحملون الخشب إشارة الى رأس العجل ومنعهم من ركوب الخيل وأمرهم بركوب البغال والحمير بركب من خشب وسروج ولجم من سير أسود غير محلاه بغضة ، كما أمرهم أن يتميزوا في الحمايات عن المسلمين ثم أقر لهم حمايات على حدة ، لكن أهل الذمة في الغالب لم يتثلوا لهذه الأوامر ونزعوا الغيار وتشبهوا بالمسلمين حتى لا يعرفوا (١٨١) فنادى بينهم أن يلتزموا بما أمر ، كما أنه بدا منذ عام ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م في إصدار أوامر صارمة زيادة على الشروط العمرية ، فجعل النصارى يحملون صلبانا ثقيلة ، فبعد أن كان طولها شبرا جعلها ذراعا ونصف وزنتها خمسة أرتال وختمها بالرصاص ، أما اليهود فجعلهم يلبسون الزنار ويحملون الخشب الثقيل (١٨٢) ومع ذلك فقد رجع الحاكم في آخر سنى حكمه بما زاده على الشروط العمرية واكتفى من أهل الذمة بلبس الغيار (١٨٣) .

ومما لا شك فيه أن أهل الذمة قد عوملوا معاملة طيبة خلال العصر الفاطمي ، فأثارت وثائق الجنيزة الى احتفاظ اليهود بحقوقهم المدنية كاملة وحتى القيود التي ارتبطت بملابس اليهود وخاصة النساء (١٨٥) ، فقد ذكرت الوثائق أن ملابس اليهوديات كانت

(١٨١) المقرئى ، الخط ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .

(١٨٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي ، تاريخ أو صلة تاريخ أوبخا ، القاهرة ١٩٠٩ ،

ص ٣٠٠ .

(١٨٣) نفسه ، ص ٢٣٢ .

Ashtor, Matériaux pour l'histoire de prix, dans (١٨٤)
l'Egypte médiévale JESHO, VI, 1963, PP. 161, 170. 173! Goitein,
Mediterranean Society, Barkely, Los Anglas, 1967 III, PP. 166 — 167.

مماثلة للمسلمات ولا يوجد أى تحديد فى ارتداء لون معين من أردية وأغطية رأس ، وبالإطلاع على قوائم الجهاز الخاصة باليهوديات فى العصر الفاطمى نقف على هذه الحقيقة ، بل أكثر من ذلك أن الخلفاء كانوا يوزعون على موظفيهم من الذميين وزوجاتهم بعض الملابس الأنيقة ومنها الخلعة (١٨٥) .

وبدئى أن يكون المسلمون مدفوعين بإصدار بعض القرارات الصارمة ردا على أفعال أهل الذمة ومنها ما قام به الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى من الزام اليهود الذين أظهروا الإسلام بتمييزهم فى الزى عن المسلمين لأنهم لم يكفوا عن أذى المسلمين والتجسس عليهم ونقل أسرار المسلمين الى الأعداء ، فوضع لهم لباسا مميزا عبارة عن ثياب كطية اللون ذات أكمام مغرطة السعة وطولها يصل الى أقدامهم وبدلا من العمام ، جعل على رؤوسهم (كلوتات) وأصلة الى ما تحت آذانهم ، وشاع هذا الزى بين جميع يهود المغرب ، ويبرر الخليفة هذا العمل بقوله : (لو مسح عندى اسلامهم لتركتمهم يختلطون بالمسلمين فى أنكحتهم وسائر أمورهم) (١٨٦) ، فيبدو من هذا الاجراء خوف الخليفة يعقوب المنصور على المسلمين من اختلاط اليهود الذين يظهرون الاسلام ويبطنون دينهم ولقد ظلوا على هذا الحال طوال مهده وصدرا من عهد ابنه الناصر ، فتوسلوا اليه فغير زيهم الى ثياب صفر وعمائم صفر (١٨٧) وقد شملت هذه الأوامر الأندلس فوجدنا لها صدى فى كتاب ابن عبدون : (آداب الحسبة) من ارتداء النصارى واليهود ثيابا معينة والا يركب أحد منهم جوادا) لأن

Mann, the Jews in Egypt and Palestine under the (٨٥)
fatimids Oxford. 1967, 11, P. 267.

(١٨٦) المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، حقه وعلق عليه
معيد العريان ، القاهرة ١٩٤٩ ، صفحات ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
(١٨٧) نفسه .

نصارى الانتلس كانوا هم أيضا يتجسسون على المسلمين لحساب ملوك النصارى وكثيرا ما أغروهم بحرب المسلمين وغزوهم . ويرى أحد الدارسين (١٨٨) أن هذا الاضطهاد بدأ عقب توسع حركة الاسترداد المسيحي في قلب أسبانيا .

وخلاصة القول ، أن ما تعرض له أهل الذمة من فرض بعض القيود والتي صدرت في صورة أوامر ملزمة ، كان السبب فيها تصرفاتهم نتيجة لعدم التزامهم بالشروط السهلة المفروضة عليهم في البداية ، ثم زيادة سطوتهم وخيانتهم للمسلمين مما أدى الى اصدار مثل هذه الأوامر في أوقات متفرقة ، والتي لم يلتزم بها في الغالب الا في السنوات التي صدرت فيها .

أما المسألة الثانية ، فهي الخاصة ببناء الكنائس ، ولقد جاء بصددنا في الشروط العبرية ما نصه : (وشرطنا على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا فيها حولها دير ، ولا كنيسة ولا صومعة راهب ولا يجدد ما ضرب منها ولا ما كان في خطط المسلمين) ومن المعلوم أن عهود الصلح قد أتاحت الأمان لدور العبادة لأهل الذمة من كنائس وبيع وبيوت النار الى جانب ما نصت عليه أيضا من : (أن لا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها) (١٨٩) فكان طبيعيا أن تشترط بعض العهود عليهم الا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة (١٩٠) ، وبالأولى أن لا يقوم أهل الذمة ببناء بيوت عبادتهم

(١٨٨) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين في الانتلس ، بيروت

١٩٦٢ ، ص ١١٢ -

(١٨٩) انظر معاهدة خالد بن الوليد لأهل عاتات ومعاهدة حبيب بن مسلمة

الأنصاري لأهل بديل ، مجموعة الوثائق السياسية ، وثيقة رقم ٢٩٧ ، ص ٢٢٥ ، وثيقة رقم ٣٤٦ ، ص ٢٥٨ .

(١٩٠) انظر معاهدة أبي عبيدة بن الجراح لأهل الشام ومعاهدة مياض بن قنم

لأهل الرقة ، نفسه ، وثيقة رقم ٣٥٣ ، ص ٢٦٥ ، وثيقة رقم ٣٥٩ ، ص ٢٧٠ .

فى المدن الجديدة التى أنشأها العرب (١٩١) مع بقاء حقهم فى أن يبنوا ما تهدم من بيعهم وكنائسهم القديمة (١٩٢) .

وفى ضوء ما سبق نستطيع أن نتبين الى أى حد تم تطبيق هذا الاطار النظرى من خلال ما حدث بالفعل ، فلقد حافظ العرب منذ البداية على تطبيق ما اشترطوه على انفسهم من حماية دور العبادة الخاصة بالاديان الأخرى ، فلم تمتد أيديهم الى بيع أو محلات اليهود أو كنائس النصارى ، فعندما أراد الخليفة عمر بن الخطاب انزال العرب فى الموصل عام ١٢٠ هـ / ٦٤١م فكان بها كنائس ومنازل للنصارى وبيع ومحل لليهود (مقام عتبة بن فرقد السلمى واليه هناك فأنزل العرب فى أماكن أخرى (١٩٣) .

كما حرص الخليفة عمر بن عبد العزيز على تطبيق هذه العهود ، فكتب الى عامله يأمره ألا يهدم كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحوا عليه (١٩٤) ، كما تطالعنا بعض النصوص التى أوردها البلاذرى (١٩٥) من حماية كنائس أهل الذمة التى صولحوا عليها ، وكذلك احترام دور عبادتهم ، فقد قدم عليه اثنان من الخوارج فسألاه عن أهل العهود فقال لهما : لهم عهودهم ، وسألاه أيضا فى أن تخرب الكنائس فأبى عمر عليهم وقال لهما أنها من صلاح رعييتى (١٩٦) ، ومن المؤكد أنه لم يهدم أى كنيسة قديمة ، كذلك سمح خالد بن عبد الله القسرى والى العراق فى خلافة هشام بن

(١٩١) أبو يوسف : افراج ، ص ١٦١ .

(١٩٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٤٦ .

(١٩٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٢٧ .

(١٩٤) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ٦ ، ص ٥٧٢ .

(١٩٥) المصدر السابق ، صفحات ١٢٠ - ١٣٢ .

(١٩٦) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٧٤ .

عبد الملك للنصارى بوجه عام بأن يبنوا كنائس جديدة ، فقد كانت
 إله نصرانية ، بنى لها كنيسة بالكوفة وكان متساهلاً أيضاً مع
 اليهود (١٩٧) ومع قيام الدولة العباسية وأنشأ مدينة بغداد ، كان
 من المتوقع أن لا ينشأ فيها كنيسة ولا بيعة ، باعتبارها مدينة جديدة ،
 ومع ذلك فقد كان لنصارى بغداد معابد وكنائس عديدة فى شرقها
 وغربها ، لأن الخلفاء العباسيين قد سمحوا لهم بإنشائها وترميم
 ما تهدم منها ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل اشتهرت هذه الكنائس
 بأبنيتها الشامخة وقبابها العالية وساحاتها الواسعة ، كما كانت
 هياكلها مفروشة بضروب الرخام المجزع وجدرانها وسقوفها مطلية
 بجص أبيض أو مصبوغة بأصباغ الذخائر النادرة وأرضها مبلطة
 بأنواع المرمر الفاخر فضلاً عما حوته خزائنها من الذخائر النادرة
 والصور الغالية والأفنية الذهبية والفضية (١٩٨) وليس الغرض من
 هذا الوصف لهذه الكنائس إلا إظهار ما تمتع به النصارى فى مدينة
 السلام من حرية واسعة فى إنشاء كنائسهم مع كونها مدينة
 جديدة وكذلك أن هذا الوصف السابق يعكس بجلاء حالة
 الثراء التى كان فيها هؤلاء النصارى والذى سوف نوضحه
 فى حينه ، كما انتشرت الديارات النصرانية فى بغداد ،
 وكانت مدينة المنصور محفوفة فى أكثر أطرافها بالديارات
 النصرانية والتى كان يلجأ إليها الزائرون من غير النصارى
 حتى أن بعض الخلفاء اتخذها ملجأ بعيداً عن متاعب الحكم يقيمون
 فيها مع من يأنسون إليه (١٩٩) مما يؤكد مدى تسامح خلفاء
 العصر العباسى تجاه النصارى ، كما كان يسمح للنصارى

(١٩٧) غلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ترجمة عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة

١٩٥٨ ، ص ٣١٩ .

(١٩٨) روناتيل بابو اسحاق ، أحوال نصارى بغداد ، ص ٨١ .

(١٩٩) الشهابى ، الديارات ، دمشق ١٩٥١ ، ص ١٢ .

ببناء الكنائس من قبل البويهيين حيث كان هؤلاء النصارى مهيمنين على شؤون الدولة فطالعتنا المصادر بأن الوزير « نصر بن هارون » النصراني استأذن « عضد الدولة » فى عماره البيع والأديرة (٢٠٠).

وفى مصر ، قد سمح عمرو بن العاص للقبض ببناء الكنائس ، فتم بناء كنيسة مارمرقس بالاسكندرية خلال ولايته الثانية (٣٨ — ٤١ هـ / ٦٠٨ — ٦٦١ م) (٢٠١) وتبدو حسن معامله الولاة للقبض فى سيرة الولاة الذين تولوا مصر بعد عمرو ، بأنهم ساروا على منهجه ولم يكتفوا بمساعدة الاقباط على تجديد الكنائس القديمة ، بل شجعوهم على بناء كنائس جديدة ، فاول كنيسة بنيت فى الفيسطاط بحارة الروم كانت فى ولاية مسلمة بن مخلد الانصارى (٤٧ — ٦٣ هـ / ٦٦٧ — ٦٨٢ م) وانكر الجند على مسلمة وقالوا : (اتقر لهم أن يبنوا الكنائس .. حتى كاد أن يقع بينهم وبينه شر ، فاحتج عليهم مسلمة وقال : أنها ليست فى قىروانكم وانما هى خارجة فى أرضهم فسكتوا عند ذلك (٢٠٢) .

ومن الكنائس التى تم بناؤها فى عصر الولاة كنيسة أبى مقار (٢٠٣) ، كما بنيت عدة كنائس فى ولاية عبد العزيز بن مروان (٦٠ — ٨٩ هـ / ٦٨٥ — ٧٠٥ م) منها كنيسة مارجرجس وكنيسة أبى قير فى داخل قصر الشمع ، كما جددت كنيسة القديس مرقس (٢٠٤) وبنيت عدة كنائس فى حلوان (٢٠٥) كذلك بنيت عدة كنائس فى خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ / ٧٢٣ —

(٢٠٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ١٠١ .

(٢٠١) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ .

(٢٠٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٣٢ .

(٢٠٣) ساويرس بن المقفع ، سير الابهاء البطاركة نشره يسى عبد المسيح ،

اسولديرستد ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ٦ .

(٢٠٤) نفسه ، ص ٢٤ .

(٢٠٥) نفسه .

(٧٤٢ م) ومنها ما أنز به واليه على مصر الوليد بن رفاعه (١٠٩ — ١١٦ هـ / ٧٢٧ — ٧٣٤ م) من بناء كنيسة أمى مينا بخط الحمراء بظاهر الفسطاط (٢٠٦) ، كذلك تم بناء عدة كنائس خلال خلافة هشام بن عبد الملك (٢٠٧) ، كما سمح الوالى العباسى موسى بن عيسى (١٧١ — ١٧٢ هـ / ٧٨٧ — ٧٨٨ م) للقيط بناء الكنائس التى هدمها الوالى الذى سبقه ومنها كنيسة مريم وقد أيدته فى ذلك ، أكبر حجتين فى الفقه الاسلامى وقتذاك وهما الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وقالوا : (هو من عمارة البلاد ، واحتجا أن عملة الكنائس التى بمصر لم تبين الا فى الاسلام فى زمن الصحابة والتابعين) (٢٠٨) ويرى أحد الدارسين (٢٠٩) أن هذا لا يكشف فقط عن سياسة الوالى ازاء المسيحيين بل يبين لنا أن هذين الحجتين فى الفقه الاسلامى كانا يقولان ببناء الكنائس وتعميرها ويعدان هذا من مظاهر التعمير فى البلاد (٢١٠) .

كما كثر انشاء الكنائس بمدينة القاهرة حاضرة الفاطميين ، وهذا الأمر لا يعد غريبا لأن الفاطميين كانوا من أكثر الحكام تسامحا تجاه أهل الذمة ، وذكر المقرئى كثيرا من الكنائس التى أنشئت فى عصرهم ، فمع مجئ جوهر الى مصر وإنشائه لمدينة القاهرة اضطر الى هدم دير بالقرب من المدينة الجديدة ، فعمر ديرا آخر

(٢٠٦) أبو صلح الأرمنى . كنائس وإديرة مصر ، أكسفورد ١٨٩٤ ، ص ٧٧ .

(٢٠٧) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٣ .

(٢٠٨) الكندى ، الولاة والقضاة ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ١٣٢ حدث بين عامى ١٦٩ — ١٧١ هـ هدم الكنائس المحدثه فى مصر فى ولاية على بن سليمان والى مصر من قبل الرشيد . انظر بمسئنه ، ص ١٣١ ، المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٥١١ .

(٢٠٩) سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٧ .

(٢١٠) ابن عبد الحكم : غتوح مصر وأخبارها ، ص ١٣٦ .

سمى بدير الخندق عوضاً عن الدير الذى هدمه (٢١١) وكثرت
الديارات الخاصة بالنساء ومنها دير الراهبات بحارة زويلة بالقاهرة
ودير البنات بحارة الروم ثم كنيسة المغيرة بحارة الروم وغيرها من
الكنائس (٢١٢) ، كما أمر المعز ببناء بيعة أبو مرقورة بمصر وكذلك
المعلقة بقصر الشمع وكتب سجلاً بذلك وأطلق أموالاً من بيت المال
للائفاق على عمارتها ، كما أشرف على وضع حجر الأساس بنفسه
عندما ثار العامة على هذا الأمر ، هذا فضلاً عن السماح بتجديد
البيع التى تحتاج الى ذلك وكذلك بيع الاسكندرية (٢١٣) .

وفى أفريقية فى عصر الولاة ، وجدنا والى الفضل بن روح
عند قدومه الى القيروان عام ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م يسمح لأحد النصارى
ببناء كنيسة فى القيروان عرفت بكنيسة قسطاس (٢١٤) ، ومن
المعلوم ، أن المسلمين عندما دخلوا الأندلس ، ومع أنهم فتحوها
عنوة ، فقد اكتفوا بمشاركة المسيحيين الكنائس ، وعندما انتشر
الإسلام فى البلد وضاق نصف الكنيسة بالمصلين اشترى عبدالرحمن
الداخل النصف الآخر من النصارى وأذن لهم فى بناء كنيسة أخرى
بدلاً من الكنيسة القديمة التى أصبحت مسجد قرطبة الجامع (٢١٥) ،
كما ظلت بيوت النار قائمة حتى القرن الرابع الهجرى بملاحظة ابن
حوقل فى شرق العالم الاسلامى (٢١٦) .

(٢١١) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٧ .

(٢١٢) نفسه ، ص ٥٠٩ ، ٥١١ .

(٢١٣) ساويرس : سير الإباء البطارقة ، صفحات ٩٦ — ٩٧ .

(٢١٤) الرقيق القيروانى : تاريخ أفريقية والمغرب ، تحقيق المنجى الكعبى ،

تونس ١٩٦٨ ، صفحات ١٨٤ — ١٨٥ .

(٢١٥) مؤنس : فجر الأندلس ، صفحات ٤٩٢ — ٤٩٣ .

(٢١٦) المسالك والممالك ، ليدن ١٨٧٣ ، ص ١٨٩ .

صفوة القول ان الدولة الاسلامية قد اتاحت لاهل النمة ومنهم
النصارى بناء الكنائس فى المدن الجديدة ، مع أن هذا الأمر غير
مسموح به فى خطط المسلمين مما يؤيد أن هذه الأوامر لم تنفذ
وكانت مجرد اطار نظرى ، كما كانت هذه الكنائس تشيد بموافقة
الحكام .

واذا كانت الكنائس قد تعرضت فى بعض الاحيان للهدم أو
التخريب ، فهذا الأمر مرتبط بحالات فردية سرعان ما كانت تتلاشى
آثارها فى فترة لاحقة أو كان انعكاسا لظروف سياسية خارجية ،
ففى مصر قد اشتد أسامة بن زيد على قبط مصر وهو الذى عزل
من قبل فى خلافة عمر بن عبد العزيز . ووصل الأمر الى قدومه فى
ولايته الثانية الى هدم الكنائس فى عام ١٠٤ هـ / ٧٢٢ م .

لكن مع اعتلاء الخليفة هشام بن عبد الملك عرش الخلافة كتب
الى والى مصر بأن يجرى النصارى على عوايدهم وما بأيدهم من
العهد (٢١٧) ونفس الشيء حدث مع على بن سليمان عام ١٧٠ —
١٧١ هـ وهدمت بعض الكنائس ، فلما ولى موسى بن عيسى أذن
للنصارى فى بناء ما تهدم من كنائس كما سبق (٣١٧) ، ولأسباب
خارجية ، ليس للمسلمين بها شأن ، ففى مصر فى العصر
الاخشيدى قام العامة بتخريب الكنائس عندما ورد الخبر بأن
البيزنطيين دخلوا الشام عام ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م ، كما أنهم ثاروا
وضربوا احدى الكنائس فى مصر القديمة حينما ورد الخبر عام
٤٥٠ هـ / ٩٦١ م بأن الامبراطور نقفور غزا جزيرة كريت وضرب
ما فيها من المساجد وسبى من أهلها خلقا كثيرا ، فضلا عن ذلك أن

(٢١٧) القريزى : الخط ، ج ٢ ، ص ٤٩٣ .

(٢١٨) نفسه .

تسلط أهل الذمة وسيطرتهم على النواحي المالية من شأنه أن يجعل العامة يثورون عليهم (٢١٩) .

كذلك تضمنت أوامر الخليفة الحاكم بأمر الله أمرا بهدم الكنائس والبيع والأديرة في عام ٤٠٣ هـ/ ١١٠٢ م وصادر أملاكها (٢٢٠) ، ويبدو أن العامة انتهزوا إصدار مثل هذه الأوامر فكانوا يأتون بأهـور لم تشاهد من قبل منها ، دخولهم الأديرة ومقابر النصارى (٢٢١) لكن لم يهدم خارج مصر إلا كنيسة القيامة المقدسة والتي تعتبر بمثابة مزار للنصارى ، فاصدر الحاكم أمرا الى واليه على بيت المقدس جاء فيه : (أمر الامامة اليك بهدم قبة ، فاجعل سماءها أرضا وطولها عرضا) فهدمت وان بقيت بعض أجزائها (٢٢٢) ، ويرجع السبب في هدمها الى أن امبراطور الروم هدم جامعا بالقسطنطينية (٢٢٣) وعلى ما يبدو أن الحاكم لم يهدم غير كنائس وأديرة ملكانية ، مع نـجاة كثير من الكنائس والأديرة مثل دير طور سيناء الملكاني الذي استطاع شيخه أن يحفظه بالحيلة (٢٢٤) ، كما أن الحاكم لم يهدم كل الكنائس خوفا على المساجد التي في بلاد النصارى ، خاصة في الحبشة والنوبة حيث كان بها أعداد كثيرة من المسلمين (٢٢٥) ، لكن في خلافة الظاهر تم ترميم كنيسة القيامة نظير ترميم مسجد القسطنطينية (٢٢٦) .

(٢١٩) سيدة كاشف ، مصر في عهد الأخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٢٤٠ .

(٢٢٠) يحيى بن سعيد ، صفحات ٢٢٩ : ٢٢٢ .

(٢٢١) أبو صالح الأرمي ، كنائس وأديرة مصر ، صفحات ٥٨ ، ١٤٦ .

(٢٢٢) ابن الأثير ، الكاشف ، ج ٧ ، ص ٢٤ .

(٢٢٣) المتريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٥ .

(٢٢٤) يحيى بن سعيد ، صفحات ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢٢٥) المتريزي المصدر السابقة ، ص ٣٥٥ .

(٢٢٦) نفسه .

ومعنى ذلك أن ما هدم من كنائس ، كان مرتبطا بتصرفات غير المسلمين خارج دار الاسلام كرد فعل لما قاموا به (٢٢٧) أو ما قام به العامة كان بمثابة رد على لتحركات الروم فى بلاد الشام وان كان هذا الأمر غير مقبول ويعد استثناءا لأن ما جلبت عليه الأمة الاسلامية من التسامح يمنعها من ارتكاب مثل هذه التجاوزات والحاكم هو فى حد ذاته يعد استثناءا مفردا لما قام به من أفعال نافقت التجاوز فى بعض الأحيان .

وأخيرا ، لنا أن نقرر أن هذا الإطار النظرى الذى وضعه الفقهاء المتأخرون لم يكن هو المعمول به وكان أهل الذمة يتمتعون بكافة الحقوق والحريات التى سوف نقوم بذكرها فى الفصول القادمة لنبين الى أى حد رصل هؤلاء من خلال ما أُتيح لهم من حرية الى تكوين مجتمع دينى له حريته وكذا ما أتاحه لهم المسلمون من امتيازات سمحت لهم بالوصول الى أعلى المناصب وكذلك القيام بنشاط كبير فى الحياة الاقتصادية وما ترتب عليه من وضعية اجتماعية مرموقة عاشت فى كنف المسلمين حياة سهلة حتى يصدق فى النهاية ما ذكره بعض الباحثين بأن هذه الشروط الست المستحقة كانت تمثل أمانى مؤلفيها .

(٢٢٧) ماجد ، الحاكم بأمر الله ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٠٠ .

الفصل الثاني

الحرية الدينية والمدنية

الحسرية البينينة والمنينة

من المعلوم أن القادة الفاتحين قد أتاحوا لأهل الذمة حقوقا وحريات متعددة من خلال المعهود التي أبرموها معهم ، فلم يقتصر العهد على أن يكونوا آمنين على أنفسهم وأرواحهم وأموالهم ، بل على ديانتهم ودور عبادتهم ، وبذلك أتيح لأهل الذمة حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، فلم يفرض عليهم شيء من القيود وفتح لهم باب واسع للتسامح كان مغلقا دونهم قبلا حيث كان أهالي الشعوب المفتوحة يبرزحون تحت الاضطهاد الديني الذي ظلوا يعانون منه قبل الاسلام تحت حكم الفرس والروم .

ويرجع الاضطهاد الديني في الدولة البيزنطية للـ~~خلافات~~ المذهبية . وقد مثل ذلك الاضطهاد خير تمثيل في مصر البيزنطية (١) وقد ضرب هذا الاضطهاد بجذوره منذ القرن الثامن الميلادي حيث بدأ منظما في حكم الامبراطور سبستحيوس سفيروس (١٩٣ -

(١) انظر سيده كاهن : مصر في فجر الاسلام ، ص ١٢ وما بعدها .

(٢١١ م) ثم بلغ الاضطهاد أقصاه مع الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) حتى أطلق على هذا العصر (عصر الشهداء) ، وعلى الرغم من احراز المسيحية أكبر انتصار باعتراف الامبراطور قسطنطين بالمسيحية (٣٢٣ — ٣٣٧ م) كأحد الأديان المعترف بها في الامبراطورية الرومانية وما تلا ذلك من جعل المسيحية الدين الرسمي الوحيد مع الامبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ — ٣٩٥ م) .

لكن سرعان ما فشا الخلاف حول طبيعة المسيح ، وندخل الأباطرة في هذا الخلاف بداية من الامبراطور قسطنطين ، ومن أجل ذلك عقدت المجامع الدينية التي نشأ عنها خلاف حاد بين كنيسة الاسكندرية والقسطنطينية بسبب تبني الأباطرة سياسة دينية مناوئة لمعتقدات مسيحي مصر ، فذهبت كنيسة الاسكندرية الى القول بان للمسيح طبيعة واحدة ، أما كنيسة القسطنطينية ، فقالت بان للمسيح طبيعتين ومن أجل ذلك دعى المجمع الرابع في خلقدونية عام ٤٥٢ م بسبب ذلك الاختلاف وأسفر هذا المجمع عن عزل البطريرك المصري . كما أقر مذهب الطبيعتين الذي اعتبر المذهب العام للامبراطورية وعرف بالمذهب الملكي او الملكاني نسبة الى الامبراطور (مرقيانوس) الذي دعا الى عقد مجمع خلقدونية وعلى اثر ذلك اتخذ هذا الخلاف في مصر شكلا قوميا . فقد أدت القرارات السابقة الى حدوث ثورة دينية في مصر وأطلق الثائرون على أنفسهم (الأرثوذكسيين) (أى أتباع الديانة الصحيحة) كما عرفوا أيضا باليعاقبة نسبة الى يعقوب البراعى أسقف مدينة الرها المونوفيزي .

وقد تعرض اليعاقبة لاضطهادات كانت فاتحة لمأساة عظيمة استمرت حتى منتصف القرن السابع الميلادي . وفي خلال حكم

هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) الذى أصدر صورة توفيقية تقضى بأن يمنع الناس من الكلام فى طبيعة المسيح وصفته وأن يعترفوا جميعا بأن له ارادة واحدة ، فلم يقبل أهل مصر هذا المذهب ومما زاد الطين بلة أن قيرس أو المقوقس كما أسماه مؤرخو العرب قد فرض على المصريين أحد أمرين إما الدخول فى المذهب الجديد الذى ابتدعه هرقل وإما الاضطهاد وكان مسيحيو مصر يشكلون غالبية من اليعاقبة وأقلية من الملكانية . ولذلك أنت هذه الاضطهادات التى هروب البطريرك القبطى بنيامين خوفا من القضاة التى ستحل به وبطائفته من جراء الاضطهاد لفرض المذهب الجديد .

وكان من الطبيعى أن رعايا الدولة البيزنطية فى مصر وغيرها ، هم الذين رحبوا بالعرب فاتحين ومن أجل هذا استقبلوا بالرضا والحفاصة هؤلاء الفاتحين الذين وعدوهم بالتسامح الدينى ، كما أظهروا رغبتهم فى تسوية مركزهم الدينى (٢) .

وفىها يخص دولة الفرس ، فقد استبد بها الساسانيون فى أواخر أيامها استبدادا اتسم بالفوضى والعنف ، كما استغل حكامها نفوذهم فى اضطهاد الفرق الدينية المخالفة ، وقد أثار هذا الاضطهاد شعور الكراهة المريرة الذى أحسه الشعب الفارسى نحو هذا الدين المجوسى ، ونحو تلك الدولة التى وقفت من ذلك الاضطهاد موقف الرضا والتشجيع (٣) .

وإذا كانت الدولة الساسانية قد حاولت أن تقوم بحركة احياء للدين المجوسى القديم دين زرادشت فكان هذا احياء له نتائج السيئة فادى الى تسلس الزرادشت الى حياة الشعب كلها ،

(٢) ارنولد ، الدماء الى الاسلام ، ص ٥٣ .

(٣) نفسه ، ص ١٧٩ .

تحكموا فيها وسيطروا على جميع ألوان النشاط البشرى فى إيران ،
ومعنى ذلك أن أيديهم أطلقت فى الشؤون الاقتصادية كما امتد
سلطانهم الى النواحي الادارية (٤) .

هذه هى السمة المميزة لحال رعايا امبراطوريتى الروم
والفرس عشية ظهور الاسلام ولذلك لم يلق المسلمون مقاومة ذات
بال من هذه الشعوب التى طالما عانت من اضطهاد وعنت فوجدنا
جموع المضطهدين يستقبلون الفاتح العربى بحماس ورضا شديدين
فى الاقاليم البيزنطية والفارسية ، املا فى التخلص مما يعانون
منه .

ومع القادة الفاتحين الاوائل الذين حملوا الاسلام شرقا
وغربا كانت هناك اطلالة للشعوب المقهورة على عالم جديد ليه
التسامح وظاهره العنف والرفق شملت مظاهر الاحتكاك الاول فى
الدعوة الى الاسلام كما أسلفنا وما حوته عهود الأمان من تطمين
هذه الشعوب فى أخص خصوصياتها وهى عقائدهم الخاصة ومن
الجدير بالملاحظة أن الدولة الاسلامية قامت أساسا على الدين وكان
الدافع للفتوحات هو نشر هذا الدين الذى نزل للناس كافة ، فلم
تتشابه بأى حال من الأحوال مع امبراطوريتى الفرس والروم اللتين
قامتا من خلال استنادهما على السلطة الزمنية ، ومع ذلك كانت
طرائق نشر الاسلام خلوا من أى روح استبدادية أو تعسفية .

ويدهى أن تكون ممارستها الفعلية لا تقف فقط عند حد الاطار
النظرى أو بمعنى آخر ، إذا كنا قد ذكرنا عهود الأمان وما حوته
من أمان لأهالى البلاد المفتوحة واطاحة الحرية فى ممارسة الشعائر
لك السمة الغالبة فى كافة عهود الأمان والتى لم تقتصر على فترة

(٤) حسن محبوب ، الاسلام فى آسيا الوسطى ، صفحات ٥ - ٦ .

بعينها بل ظلت هذه الروح حتى فى بعض الفترات المتأخرة كما سبق أن بينا ، بل كان لابد أن يتضح ذلك من خلال الممارسة الفعلية فى معاملة غير المسلمين لتطبيق ما جاء فى عهود الأمان وأقصد على وجه التحديد الحرية الدينية .

وتبعاً لذلك ، فلابد لنا من دراسة التنظيمات الداخلية للطوائف الدينية التى شملتها دار الاسلام لنقف على التنفيذ الفعلى لعهود الأمان فى البلاد المفتوحة ، وكيف عاشت هذه الطوائف تمارس حرياتهن وتنظم أحوالهن الدينية داخل جماعاتهن دونما أى تدخل من الدولة الإسلامية .

وشكل اليهود إحدى الطوائف الكبيرة العدد التى عاشت فى دار الاسلام وكان حاخام اليهود الأكبر قبل الاسلام (هـ) واحداً من عمال الدولة الفارسية ، كما كان فى الشام يسمى ملكاً ، وكان يطلق عليه وعلى جميع من تقدمه فى القدس بعد عودهم من السبي البابلى : « الكوهن الأكبر » (٦) ، وكانت مهمة رئيس اليهود وقتذاك جمع الضرائب من رعايا الدولة الفارسية اليهود ومراقبة محلاتهم فى الأسواق والنظر فى جرائمهم وقضائهم ، بمعنى أنه كان لهذا الرئيس الزعامة السياسية والدينية على اليهود آنذاك (٧) .

وحافظت الدولة الإسلامية على وضع اليهود ، عندما أقر الخليفة عمر بن الخطاب تعيين الحاخام الأكبر (البستاني) رئيس جالية اليهود بالعراق رئيساً دينياً لليهود لكل الطائفة اليهودية فى

(٥) Goitein, S., Jews and Arabs, their Contact Through the Ages, New York. 1955, P. 120.

(٦) ابن خلدون : المقدمة ، طبعة بيروت ، ص ٢٢٢ .

(٧) عطية القوصى : اليهود فى ظل الحضارة الإسلامية ، ١٩٧٧ ، ص ٢٨ .

العالم الاسلامي بعد فتح العراق ، هذا فضلا عن منحه لقب رأس الجالوت على أن يتولى شئون اليهود شرقا وغربا كما كان قبل الاسلام (٨) ، وظل هذا البيت على رئاسة اليهود خلال خلافة علي ابن ابي طالب وكذلك خلال عهد الامويين ومع انتقال مقر الحاخامية من العراق الى فلسطين بعد اتخاذ الامويين بلاد الشام مركزا لدولتهم (٩) .

وظلت اختصاصات رأس الجالوت في العصر الاسلامي كما هي من اشرافه على يهود الدولة الاسلامية والنظر في احوالهم ، كما كان مسئولوا امام الدولة عن تنظيم دفع الجزية . واذا كان رأس الجالوت هو رئيس اليهود فكان ايضا من اختصاصاته اختيار ممثلين ينوبون عنه في المراكز الدينية المختلفة واختيار قضاة اليهود (الديانين) وان كان يقوم بنفسه بالنظر في قضايا اليهود المهمة والحكم فيها (١٠) .

ومع العصر العباسي أصبحت بغداد مقرا للحاخاميات اليهودية الكبرى بعد أن اتخذها العباسيون حاضرة لخلافتهم فقد كان الخليفة العباسي يقوم بختيار وتعيين رأس الجالوت (١١) وباعتباره من اكبر موظفي الدولة لانه مسئول عن طائفة كبيرة فكان يتم الاحتفاظ بخطاب تعيينه في ديوان الانشاء ، فضلا عن ذلك استمر البستاني في الاحتفاظ بنفس اللقب الى جانب الاحتفاظ بلقب (ناسي) أو

Dubnov, S. History of The Jews 11, London. (٨)

1968 PP. 229, 230.

Ibid, P. 330.; Nisim Rejwan, The Jews of Iraq, (٩)
1985, P. 81.

Ibid, 354. (١٠)

Goitein, Op. Cit., P. 120. (١١)

أمير ، على أن يكون منصب رأس الجالوت وراثيا فيها بينهم (١٢) ومن هذا نتبين مدى ارتباط حركة الجاخامية اليهودية بمركز الخلافة سواء في دمشق أو بغداد مما يؤكد أن هذه الطائفة قد نالت اهتمام الخلافة وأن العلاقة بينهما قامت على أساس الاحترام .

كما حظى رأس الجالوت عنان بن داود باكرام الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣) كما انعكست هذه الروح التي عومل بها على عاية المسلمين الذين كانوا يحترمونهم حتى أن رأس الجالوت دانيال بن جسدای في خلافة المتقي (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ) كان ينعت بلقب سيدنا ابن داود ، وكان الخليفة هو الذي مكن له الأمر فيهم وبوآه الرياسية حتى أصبح من الفرائض على المسلمين واليهود على السواء الوقوف اجلالا له اذا كانوا بحضرته ، وكان دانيال يذهب للقاء الخليفة مساء كل خميس ، وكان أثناء امثاله بين يدي الخليفة يقف امراء المسلمين وكبارهم بين يديه (١٤) .

وظل هذا الاحترام لشخص رئيس اليهود طوال العصر العباسي ، حتى أن الرجالة اليهودي بنيامين التطيلي (١٥) قد أفاض في تلك الوضعية الممتازة التي ارتقى اليها خلال خلافة المستنجد العباسي وعندما زار بغداد جوالى عام ٥٦٤ هـ - ١١٦٨ م . كان يستقبل في بلاط الخليفة استقبالا حارا ، ويعد له مكان بجوار الخليفة يتبادلان الحديث الذي ينم عن ود واحترام شديدين كما ارتبطت هذه المكانة الممتازة التي حظى بها رئيسي الجالوت لدى خلفاء المسلمين فيها خطوط به من الفاظ التعظيم عند الكتابة اليه ،

Dubnov, Op. Cit., P. 354.

(١٢)

Ibid.

(١٣)

(١٤) المغريزي ، الخط ، ج ٢ ، ص ٤٧٥ .

(١٥) تراتون ، أهل الذمة في الإسلام، ص ٢٠ .

وظهرت هذه الانقلاب في بعض النصوص المتأخرة (١٦) ومنها :
الرئيس : الأوحى ، الأعز ، الأخص ، شرف الطائفة اليهودية .

وقد سمح مناخ الحرية الذى اتاحه الحكم الإسلامى لليهود
بظهور وظيفة دينية أخرى كبرى عند اليهود ، لا تقل خطورتها عن
وظيفة رأس الجالوت وقد عرفت هذه الوظيفة بالجاعونية وأطلق
على صاحبها الجاعون الذى يعنى بالعبرية الأئمة أو المعظم ، وتم
ذلك فى خلافة على بن أبى طالب عندما تم فتح مدينة برون شابور
القريبة من ببادثيا ، فتقدم إليه حاخام أكاديميتها ورحب بالخليفة
باسم اليهود فمرسه الخليفة رئيسا دينيا لأكاديميتى اليهود
الرئيسيتين فى سورا وببادثيا وأنعم عليه بلقب جاعون (١٧) .

واستمرت هذه الوظيفة فى العهد الأموى والتى يختص
صاحبها بالنواحي الدينية والقانونية وعليه أن يقوم بالإجابة على
كل الأسئلة التى ترد من مختلف البلاد التى يوجد بها اليهود ، كذلك
كان عليه أن يرسل نوابا عنه الى البلاد لتفسير أحكام الجاعون وفرض
المنازعات بين اليهود وجمع تبرعات جماعات اليهود للجاعونية ، كما
ظلت قائمة خلال العصر العباسى الأول وأخذت هذه الوظيفة فى
الازدهار وحملت لواء نشر التعاليم اليهودية وتصحيحها بين اليهود
بفضل ما كفلته الدولة الإسلامية من حرية دينية وحرية الانتقال فى
أرجاء العالم الإسلامى وكذا حرية التعليم مما ساعد الجاعونية على
القيام بنهضة دينية وأدبية كبرى أتاحت لهم فرصة لتصحيح التلمود
وتعاليمه وتطبيقها بشكل صحيح (١٨) .

(١٦) الطشندى ، صبح الأمشى ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

Dubnov, Op. Cit., P. 380.

(١٧)

Gotteln, Jews and Arabs, P. 122.

(١٨)

ولذلك استطاعت جاعونية سوريا في العراق أن تعقد الاجتماعات الدينية الدورية كل عام حيث تناقش فيها مسائل شريعة التلمود ، وخلال هذه الاجتماعات كانت تناقش أيضا الاستفسارات الدينية المختلفة التي ترد الى الجاعونية من البلاد المتفرقة ، كما كان يتم اختيار أفراد من المثقفين في الشرع اليهودي والتلمود لتولي منصب القضاء ويصبحون (ديانين) ، وكان كل ديان الى جانب قيامه بالنظر في قضايا يهود ناحيته وفي أمور الزواج والطلاق كان أيضا يرأس المجالس التعليمية (١٩) .

كما أتيح لليهود أيضا في ظل الدولة الإسلامية وضع تنظيمات دينية فلسفية لليهودية ، ففي خلال عهد المنصور ظهر عنان بن داود الذي دعا الى مذهب جديد ، انشق به على اليهود وعرفت على يديه طائفة (القرائين) او العنائية ، الذين لم يؤمنوا بغير (المقر) أى ما يقرأ منه وهى التوراة التي لم يعترفوا بغيرها من كتب اليهود ، كذلك لم يتقيدوا بها جاء في التلمود (٢٠) ، ولا يعتقد القراءون في تاويل التوراة واكتفوا بظاهر النصصوص وكان أثر المعتزلة والمتكلمة واضحا في فكر القرائين (٢١) .

وبذلك وقف القراءون موثقا معاديا للريانيين الذين سيطروا على الحياة اليهودية باعتبارهم يشكلون غالبية اليهود ، وقد سمى اصحاب هذه الفرقة بهذا الاسم لاتباعهم تفاسير علماء اليهود في (المشنا) ، والتلمود وتبسكوا بذلك حتى أصبح هذا الاسم مرتبطا

Dubnov, Op. Cit., P. 368, 360.

(١٩)

(٢٠) مراد فرج ، القراءون والريانيون ، القاهرة ١٩١٨ ، ص ٣٦ — ٤١ .

(٢١) على سبيل النشر ، الفكر اليهودي وتأثره بالفلسفة الإسلامية ،

الاسكندرية ١٩٧٢ ، ص ١٧ .

هم (٢٢) ، ولذلك وقع الصدام بين الربانيين والمدافع عنهم ضد العذائية (٢٣) وأسفر الصدام عن انتصار الربانيين بفضل سعديا ، وسار مذهبهم على جميع اليهود ، وأصبح رئيس اليهود يختار من طائفة الربانيين وأن تكون لهم السيطرة على اليهود كافة بداية من العصر العباسي الثاني (٢٤) .

أما عن النصارى ، فصار الجاثليق النسطورى رئيس المسيحيين الشرقيين هو الرئيس الأكبر للنصرانية ، وكانت الكنيسة تنتخبه ويصادق الخليفة على هذا الانتخاب ويكتب له عهدا ، كما يكتب لكبار العمال المتصرفين ، ويكون هذا التعيين فى مدينة بغداد ويمقتضى ذلك يكون زعيا للنصارى الذين تضمهم الدولة الإسلامية وما عداهم من الروم والساقبة والملكية ويكون له حق الاشراف على هذه الطوائف وعلى طقوس العبادة وله أن يعاقب من لا يمثل لحكمه (٢٥) ، وكان على بطرك اليعاقبة أن يذهب الى قصر الخلافة عند تنصيب كل خليفة جديد (٢٦) .

-
- (٢٢) المسماة : كتاب مبرى فقهى بمقابلة تفسير التوراة لليهود ، تعرف بالتوراة المدونة لامتهادهم أن الله أوحى الى موسى فى أثناء الايام الأربعين التى قضاهم ، وشيبه وأمره أن يدخلها شفويا . انظر مراد فرج ص ٣٦ .
- (٢٣) على ساسى النشار ، الفكر اليهودى ، ص ٢١ .
- (٢٤) الطلقبندى ، صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢٨٥ .
- (٢٥) متر : الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ٧٩ ، ذكر أن الطبيب حنين ابن اسحاق اخرج كتابا فيه صورة المسيح مصلوبا وصور ناس حوله فقال له الطينورى هؤلاء الذين صلبوا المسيح ، قال نعم فقال له ابصق عليهم فرفض وقال لا لانهم ليسوا الذين صلبوا المسيح انما هى صور غاشقة ذلك على الطينورى ورنمه الى المتوكل يسأله اباحة الحكم عليه بديانة النصرانية ، فيبعث الى الجاثليق والاساقفة وسأله عن ذلك فأوجبوا اللعنة على حنين فلعن سبعين لعنة بحضرة الملا من النصارى وقطع زناره — انظر ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء فى طبقات الاطباء ، بيروت ١٩٦٥ ، ج ٢ ، صفحات ١٤٨ — ١٤٩ .
- (٢٦) نفسه . ص ٨٥ .

أما المجوس فكان لهم كاليهود والنصارى رئيس يمثلهم فى
تصر الخلافة ، وكانت الرئاسة فى المجوس وراثية مثل اليهود
وكان يلقب رؤسائهم بلقب الملك ، وهو يقوم أيضا بجمع الضرائب
ليقدمها للدولة الإسلامية (٢٧) .

وبذلك تركت لأهل الذمة شئونهم الداخلية ينظمونها بالشكل
الذى يريدون واقتصر دور الخلافة الإسلامية على الإشراف فقط .

وفى مصر الإسلامية ، يبدو أن يهود مصر خلال عصر الولاة
كانوا خاضعين لأكاديمية فلسطين منذ أن انتقل مركز الثقل للأكاديمية
اليهودية مع انتقالهم الى الشام وأن كان تاريخهم خلال هذه الفترة
بكتفه القموض وترجع أقدم الوثائق التى تشير الى يهود الفسطاط
الى عام ٧٥٠م (٢٨) أى مع نهاية الدولة الأموية .

وفى العصر العباسى ومع انتقال مركز الحاخامية الى بغداد ،
نجد أن يهود مصر خلال تلك الفترة كانوا خاضعين خضوما مزدوجا
لأكاديمية العراق وأكاديمية فلسطين ، حتى عرف أتباع أكاديمية
العراق باليهود العراقيين ، كما عرف أتباع أكاديمية فلسطين باليهود
الشاميين ولذلك كان من الطبيعى أن تحصل أكاديمية العراق على
عون مالى كبير من اليهود العراقيين الذين استقروا فى مصر بأعداد
كبيرة فى تلك الفترة (٢٩) ، لأن الخليفة العباسى كان يعترف لرئيس
اليهود بالعراق برئاسته لكل يهود دولة الخلافة ومنها مصر (٣٠)

(٢٧) نفسه : ص ٧٨ .

(٢٨) Mann, The Jews in Egypt and Palestine Under the fatimids, 1, P. 13.

(٢٩) Irid, P. 15.

(٣٠) Cohen, Jewish Self-Government in Medieval Egypt, Princeton University Press, 1930. P. 3.

ولأن الطولونيين والاختشيديين كانوا تابعين للخلافة العباسية على الأقل من الناحية الدينية ، فإن هذا الأمر انعكس بدوره على أوضاع اليهود المصريين الذين ظلوا تابعين لرأس الجالوت في العراق (٣١) .

ومع قيام الدولة الفاطمية في مصر عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م استقل يهود مصر وفلسطين عن يهود المشرق وكانت لهم رئاسة خاصة وعرف رئيس اليهود الجديد باسم (سرهسايم) أمير الأمراء أو باسم (الناجد) واستقل هذا الرئيس عن رأس الجالوت في العراق ولذلك كان يقوم بتعيين أجباز اليهود في حدود ممتلكات الخلافة الفاطمية في مصر والشام معنى ذلك أن اختصاصات هذه الوظيفة جمعت بين اختصاصات رأس الجالوت السياسية واختصاصات الجامع الدينية (٣٢) ، لذلك كان تعيين الناجد من قبل الخليفة باعتباره يمثل جماعة اليهود أمام الحكومة ، كما تضمنت اختصاصاته تعيين القضاة في المقاطعات والنواحي والإشراف على المحاكم اليهودية ، كما سمحت هذه الوظيفة لصاحبها أن يرأس جماعات اليهود في مصر وإن كان اختياره دائما من جماعة الربانيين (٣٣) ، وكان ناجد الفسطاط يمثل السلطة العليا في القاهرة والفسطاط وكان على حبر الاسكندرية وبقية رؤساء الجماعة اليهودية قبول قراراته (٣٤) ، وبديهي أن تكون أقامة الفاطميين لمنصب الناجد في إطار سياستهم المضادة للعباسيين (٣٥) .

-
- (٣١) قاسم عبده قاسم ، اليهود في مصر ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٤٠ .
Mann, Op. Cit., 1, P. 394. (٣٢)
Ibid, PP. 255, 256. (٣٣)
Cohen, Op. Cit., PP. 4 — 5. (٣٤)
Mann, Op. Cit., PP. 204 — 206. (٣٥)

أما الإقباط فمع بداية الفتح على يد عمرو بن العاص فلم يتم فقط تنفيذ شروط معاهدة الأمان وإقامة حرية العبادة للأقباط ، لكن أيضا تم لم شعث الكنيسة المصرية من خلال إعادته للبطرك بنيامين الى كرسيه بكنسية الاسكندرية بعد أن ظل مبعدا عنه مدة ثلاثة عشر عاما هاربا من اضطهاد الروم ، ولما كان موضعه غير معلوم كتب عمرو الى جميع أقاليم مصر كتابا قال فيه : (الموضع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله قليخضر آمنا مطبنا ، ويدير حال بيعته وسياسة طائفته (٣٦) كما أحسن عمرو استقبال رهبان وادى النطرون ومنحهم أمانا لأنفسهم وأديارهم (٣٧) .

كما تأكدت شروط الصلح من خلال تلك الحرية الدينية التى تمتع بها الاقباط ، وهو أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا فى أمورهم أى تدخل (٣٨) . ولذا وجدنا عمرو بن العاص يعطى بنيامين بعد رجوعه الحرية فى الاشراف على الكنائس ورعاية أحوال الاقباط مما أدى الى رجوع كثير من المصريين الى مذهبهم الأرثوذكسى الذى أجبروا على تركه خلال اضطهادات الامبراطور هرقل ، كما عاد كثير من الذين اختفوا قبلا خوفا من البيزنطيين .

وان كان عمرو حريصا على عدم التدخل فى شئونهم ومع ذلك كان اهتمامه بأمرهم كبيرا فسمح لهم ببناء الكنائس كما بينا من قبل وخير شاهد على التزام عمرو بمعاملة الأقباط معاملة طيبة

(٣٦) ساويرس ، سير الإباء البطارقة ، صفحات ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٣٧) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٥٦ .

(٣٨) بطر ، فتح العرب لمصر ، تعريب توفيق أبو حديد ، القاهرة ١٩٢٣ ، صفحات ٢٣٤ - ٢٣٥ .

شهادة أحد المعاصرين من الأقباط هو حنا النقيوسى (٣٩) وان هاجمه فى جانب فقد أنصفه أيضا فى جانب آخر قال : (قد تشدد مى جباية الضرائب التى وقع عليها الاتفاق ولكنه لم يضع يده فى شيء من ملك الكنائس ولم يرتكب شيئا من النهب أو الغصب ، بل أنه حفظ الكنائس وحماها الى آخر حياته) .

وهذه الشهادة تقف دليلا على أن العرب الفاتحين قد نفذوا شروط الصلح الخاصة بالجباية ولم يشتطوا فيها وان كانوا حريصين على الالتزام بتحصيلها ، فانهم ايضا أعطوا الأقباط الحرية التامة فى ممارسة شعائرهم الدينية ولم يتعرضوا بالتدخل فى أمورهم ، كما ترك للأقباط مطلق الحرية فى التنظيمات الخاصة بهم ، فان كان لوالى مصر الحق فى الاشراف على انتخاب البطاركة بوصفه يمثل الخليفة فى مصر وأعلى سلطة سياسية فى الولاية ، وكان على البطرک والأساقفة أن يأتوا من مقرهم بالاسكندرية الى القسطنطينية لمقابلة الوالى بعد انتخاب البطرک (٤٠) ، فيبدو أن هذه الزيارة كانت مجرد مسائل شكلية بدليل أنه لم يعرف عن الولاة أنهم عارضوا فى انتخاب أو تعيين أحد البطاركة الا اذا طلب منه النصارى ذلك (٤١) .

كذلك حظى الأقباط اليعاقبة بعطف الولاة باعتبار أنهم كانوا يمثلون غالبية أهل مصر ، وهذا بدوره أدى الى استرداد اليعاقبة عدد من الكنائس والأديرة التى كانت بيد الملكانيين كما تم اجتذاب كثير من الملكانيين الى مذهبهم (٤٢) . كما حظى الملكانيون ببعض

(٣٩) بظر ، فتح العرب لمصر ، ص ٢٣٦ .

(٤٠) مساويرس : سير الآباء البطاركة ، ص ٢٣٠ .

(٤١) سيدة كاشف : مصر فى غير الإسلام ، ص ١٨٦ .

(٤٢) ابن البطريق : التاريخ المجوع على التحقيق والتصديق ، مطبعة

الجريفة فى أوقات معينة ، ففى خلال خلافة يزيد بن معاوية (٦٠ — ٦٤ هـ / ٦٨٠ — ٦٨٤ م) استطاع أحد اتباع الملكانية فى مصر أن يتسلط على الاسكندرية ومريوط وكل ما يليها والزم اليعاقبة بالانفاق على الاسطول (٤٣) ، كما تأثرت مصر بالأحوال السياسية للخلافة الأموية ، ففى خلافة هشام بن عبد الملك نتيجة للاتفاق الذى تم بينه وبين الدولة البيزنطية أمر الوالى عبيد الله بن الحجاب أن يسلم الملكانية كنائسهم التى كانت بيد اليعاقبة ، ومعلوم أن هذا لم يقتصر على مصر بل لابد أنه كان له أصداء فى بعض الولايات كما قام بتنصيب بطرك منهم لأول مرة منذ الفتح (٤٤) كما كان لنجاح البطرك الملكانى فى مصر من تطييب جارية هارون الرشيد أن صدر منشور بأن يسلم الكنائس الملكية التى غلب عليها اليعاقبة (٤٥) .

أما فى مصر التى بدأت مع الطولونيين خطواتها نحو الاستقلال عن الخلافة العباسية ، فلم تختلف أحوال الذمة فيها عن بقية العالم الإسلامى حيث استغل أهل الذمة دائما التسامح الذى حصلوا عليه ، فقد ذكر المؤرخون أن أحمد بن طولون فرض على البطرك ميخائيل الغرامات الكبيرة فلم يستطع دفعها فحبسه ولم يطلقه إلا بعد أن توسط لديه الكاتبان المسيحيان يوحنا وأبراهيم ابنا موسى بشرط أن يدفع غرامة قدرها عشرون ألف دينار مما جعل البطرك يفرض ضريبة على النصارى وباع كنيسة بقرب حصن بابليون وأملأها أخرى من أملاك الكنيسة لليهود ومع ذلك لم يستطع أن يجمع المبلغ كله فزج به فى السجن حيث ظل به ولم يطلق سراحه إلا فى عهد خمارويه (٤٦) .

(٤٣) المصدر السابق ، صفحات ٥ — ٦ .

(٤٤) ابن البطريق ، المصدر السابق .

(٤٥) ابن أبى أصيبعة ، طبقات الأطباء ، ج ٤ ، ص ٨٢ .

Mann, The Jews, 1. PP. 14 — 15.

(٤٦)

ويستبعد أن يكون هذا الاجراء يتخذ سمة الاضطهاد الدينى وانما كان هذا الاجراء ماليا (٤٧) ، لأن ابن طولون كان فى حاجة كبيرة الى المال لاعداد حملة له الى الشام وقيام أحد الاساقفة الحائقين على البطرك ميخائيل لانه كان قد عزله عن منصبه باخباره بأن البطرك يملك ثروة كبيرة مما جعله يطلب من هذه الأموال (٤٨) .

كما أن أحمد بن طولون أظهر من البداية ميولا طيبة تجاه القبط مع بداية حكمه سواء باعفاء رهبان دير القصير من الجزية (٤٩) أو تبرعه بمبلغ ثلاثين ألف دينار لمن أصابهم الحريق بالحقى المجاور لكنيسة مريم العذراء وكانت غالبيتهم من النصارى وذلك عندما ذهب الى دمشق وفى صحبته كاتبه الواسطى وأبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو الدمشقى (٥٠) ، كذلك وضحت سياسته منذ البداية مع الصريين من خلال رغبته فى تخفيف عبء الضرائب عن كاهلهم لتلى استحدثها ابن المدير (٥١) .

كما تمتعوا فى العصر الاخشيدى بالحرية الدينية والطبائنية بسبب السياسة التى اتبعها الاخشيد التى كانت تقوم على أن طوائف الرعية على قدم المساواة ويتضح هذا الاتجاه من الكتاب الذى بعثه الى الامبراطور البيزنطى وجاء فيه : (وسياستنا لهذه الممالك قريبا ويعيدها على عظمها وسعتها بفضل الله علينا واحسانه الينا ومعونته لنا وتوفيقة ايانا كما كتبت الينا وصح عندك من حسن

(٤٧) قاسم عبده قاسم ، اهل الذمة فى مصر العمور الوسطى ، ص ٤٦ .

Mann Op. Cit.

(٤٨)

(٤٩) البلوى ، سيرة أحمد بن طولون ، ص ٧٣ .

(٥٠) أبو المحاسن ، اسجوم الزاهرة ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٢ ، ص ٤٤

١٣ - ١٤ .

(٥١) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٥ .

السيرة وبها يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الاولياء والرمية
ويجمعهم على الطاعة واجتماع الكلمة ويوسعها الابن والدعة في
المعيشة ويكسبها المودة والمحبة (٥٢) .

ومع قيام الدولة الفاطمية في مصر ، فمع أن الخليفة المعز
(٣٤١ — ٣٦٥ هـ / ٩٥٢ — ٩٧٥ م) ، لم يتعصب لطائفة من القبط على
أخرى ، غير أن نفوذ الملكانية بدأ يزداد في عهد العزيز (٣٦٥ —
٣٨٦ هـ / ٩٧٥ — ٩٩٦ م) بسبب زواجه من نصرانية على المذهب
الملكاني ، بحيث أنه عين أخوها في أعلى مناصب الكنيسة ، فعين
أريستس بطريركا على بيت المقدس وأرسانيوس بطريركا على
القاهرة ومصر ، فاستبدت هذه الطائفة بالأرثوذكس (٥٣) وربما
كانت وطأة الخليفة الحاكم بأمر الله شديدة على الملكانية بسبب
الحرب الشديدة بين الفاطميين والروم أو لرغبته في إبعاد الظن
بمحابة هذه الطائفة بسبب قرابة أخته ست الملك ابنة السيدة
النصرانية .

وتضمنت تصرفات الحاكم تجاه أهل الذمة بعض النواهي ،
فمنع النصراني من تقديم النبيذ في قرايبتهم ، على أن يقدموا بدلا
منه ماء قد نقع فيه زيبيا أو عود الكرم ، ثم أمر النصراني بالآظهار
صليبا أو يذقوا ناقوسا ، ونزعت الصليبان والنواقيس ، كما أمر
أن تمحى الصليبان المرسومة على أيدي الناس وعلى سواعدهم (٥٤).
كما منع سفر الأساقفة المصريين الى النوبة والحبشة أو حتى مكتبة
ملوكها (٥٥) وتبالغ المصادر النصرانية فيما ذكرته من تصرفات

(٥٢) الطقندي ، ص ٧ ، ج ٧ ، ص ٥٤ .

(٥٣) يحيى بن سعيد الطنكي ، صفحات ١٦٤ — ١٦٥ .

(٥٤) نفسه ، ص ٢٠٠ .

(٥٥) المغربي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .

الخليفة الحاكم ، وأنه قام بتعذيب النصارى بقصد تحويلهم الى الاسلام ، وهذه الكتب كان قصدها أن تظهر الالتباط بمظهر الشهداء (٥٦) . لكن ما ينفي عن الحاكم قصده تحويلهم الى الاسلام ، هو بقاء القبط في دواوينه وقصره محتفظين بديانتهم ويمنحون الألقاب مثل المسلمين (٥٧) .

وعندما أصدر أوامره بلبس الغيار كما ذكرنا فقد خيرهم بينه وبين الاسلام ، أو الهجرة ، كما نقلت إلينا هذه الكتب أيضا روايات غير واضحة عن اضطهاد الحاكم لرؤساء الملكانية واليعقوبية ، فتذكر أن أرسانيوس بطرك القبط الملكاني قد قتل سرا ، أما فيما يتعلق بزخاريوس أحد بطاركة اليعاقبة فيذكر أن اعتقاله لم يكن بفرض تحويله الى الاسلام وإنما كنتيجة لتحريرض أحد الاساقفة الذي أراد أن ينال إحدى الاسقفيات كان البطرك رفضها له فوشى به الى الخليفة الحاكم (٥٨) .

ومن الملاحظ أن اليهود كانوا في بداية عهد الحاكم بعيدين عن اضطهادهم ويتضح من وثائق الجنيزة رضا اليهود عن الإصلاحات التي قام بها ، حتى أن هذه الوثائق تمتدحه بسبب هذه الإصلاحات ، كما لم تدمر معابد اليهود في بداية عهد الحاكم حيث كانوا يجتمعون في معابدهم العظيمة في الفسطاط للاحتفال (٥٩) وإن أسلم كثير منهم ولم يمسهم بسوء (٦٠) .

(٥٦) ابن العسرى : تزيخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ ، ص ٢٢١ .

(٥٧) ملحد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٠١ .

(٥٨) يحيى بن سعيد : ص ١٩٧ ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٦٥ .

(٥٩) Mann, The Jews, 1, P. 33 — 36.

(٦٠)

(٦٠) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى

زيادة ، القاهرة ١٩٨٢ ، ج ١ ، ص ٥١ .

ومع ذلك فقد رجع الحاكم فى آخر سنَى حكمه عن هذه السياسة
الشديدة تجاه أهل الذمة ، كما سمح لكل الذين اعتنقوا الاسلام
مضطرين بالمودة الى دينهم على أن يلتزموا بلبس الغيار ، حتى
ارتد منهم فى يوم واحد أكثر من سبعة آلاف يهودى الى دينهم (٦١) ،
كذلك أصدر سجلا فى عام ٤١١ هـ / ١٠٧٠ م يطمئن فيه أهل الذمة
بحمايته لهم ماداموا ملتزمين بأوامره وهذا الأمان أطلق لأهل الذمة
حرية الشعائر ، كما منحهم عهدا جديدا كفل لهم فيه الأمان والحرية
وهذا نصه (٦٢) : (هذا كتاب عبد الله ووليه المنصور أبى على ،
الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، ابن الامام العزيز بالله أمير
المؤمنين ، لجباة النصارى به صبر ، عندهما أنهو اليه الخوف الذى
لحقهم ، والجزع الذى شالهم فأقלטهم ، واستذراءهم بظل الدولة ،
وتحرّمهم بحضور الحضرة ، بما رآه وأمر به من تكميل النعمة عليه
بتوخيّه لهم ذمة الاسلام وشرعه ، من تصيرهم تحت كنفه ، بحيث
تصفو لهم موارد الطمانينة ، وتصفو عليهم ملابس السكون والدعة
وأجابتهم الى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلد حكمه على
الأحقاب ، ويتوارثه الاخلاق منهم والأعقاب . فأبنتم جميعا آمنون
بأمان الله عز وجل ، وأمان نبيه محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين
صلّى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين وأمان أمير المؤمنين على
ابن أبى طالب سلام الله عليه ، وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين
سلام الله عليهم ، هذا على نفوسكم ودياركم وأولادكم وأموالكم
وأحوالكم وأمالكم وما تحويه أيديكم ، أمانا صريحا ثابتا ، وعقدا
صحيحا باقيا مثقوا به واسكنوا اليه ، وتحققوا أن لكم جيل رأى
أمير المؤمنين وعاطفته ، ونصرته تحيكم ، وعصمته تقيكم ، لا يقدم
عليكم بسوء احد ، ولا تتناول إليكم بحضرة يد إلا كانت زواجر أمير

(٦١) يحيى بن سعيد : ص ٢٢٢ .

(٦٢) نفس المصدر : صفحات ٢٢٦ - ٢٢٣ .

المؤمنين مقصرة من باعه ، وعظيم انكاره مضيقا فيه من ذراعه ،
والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدونه من صلاح واصلاح لسكان
أقطار مملكته ، ومدنه وسيلة الثواء فى كنف دولته وإياه يستشهد
على ما أمضاه من أمانة لكم ، وعهده الذى يشرفه طرفكم ، وكفى
بالله شهيدا وليقرر فى أيديهم حجة بما أسبغ من النعم عليهم أن
شاء الله) .

وهذا الأمان يعد تراجعا صريحا عما أصدره الحاكم بأمر الله
من أوامر وتقيود قبل ذلك ، ومع أن هذا الأمر ارتبط بشخصية
الحاكم المتغيرة ونزواته الكثيرة حتى أن بعض المؤرخين قد اعتبروا
رجوع الحاكم عن شدته مع أهل الزمة دليلا على خروجه عن الاسلام
لسماحه لمن أسلم من أهل الزمة بالارتداد ، فانه ربما كان مدفوسا
الى ذلك بسبب تضرر الممالك النصرانية المحيطة ببلاد من تصرفه
تجاه أهل الزمة ، حتى أن ملك الحبشة كان يرأسل ملك النوبة
بشأن قبض مصر كذلك قد يكون تراجعه لخوفه من أن تساء معاملة
المسلمين فى البلاد النصرانية (٦٣) .

وفى عهد الخليفة الظاهر صدر أمر فى عام ٤١٨هـ / ١٠٢٧ م
يسمح لمن اعتنق الاسلام كرها أيام الحاكم بالعودة الى دينه ، فعاد
الكثير منهم الى اليهودية والمسيحية (٦٤) كما عومل أهل الزمة معاملة
طيبة فى عهد المستنصر استمرارا لعهد الخليفة الظاهر ، فكان
البطرك القبطى اذا تولى سلطته الدينية استقبله الخليفة استقبالا

(٦٣) ملحد : الحاكم بأمر الله . صفحات ١٠٤ - ١٠٥ .
(٦٤) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٤ ، ص ١٧٨ .

رسميا فى قصره ، وما وصفه المؤرخون(٦٥) حول هذا الاستقبال يقف دليلا على ما ناله النصرارى على وجه الخصوص من رعاية واهتمام . كما حظيت الاديرة النائية برعاية الخلفاء الفاطميين ، فعندما خرج الخليفة الامر فى رحلة صيد بالقرب من دير تهيا بالقرب من الجيزة منح رهبانه المال(٦٦) كذلك هناك سجلات حفظت فى دير سانت كاترين مرسلة من قبل الخلفاء والوزراء الاتوياء لتأمين الرهبان فى هذا الدير على ارواحهم وممتلكاتهم ، مثل تلك السجلات المرسلة من الخليفة الحافظ ، كما كان الخليفة الفائز متسامحا مع اليهود والنصارى ويؤكد ذلك المنشور الذى أصدره الى رجاله فى شبه جزيرة سيناء يأمرهم فيه بأن يشـملوا الرهبان بالرعاية والعناية(٦٧) ، كما يتضح حرص الخلفاء الفاطميين على رعاية أهل الزمة من انفاق الاموال الطائلة على نفقة وصيانة المؤسسات الدينية اليهودية والمسيحية ، فكانت اكاديمية فلسطين تتسلم منحة ثابتة للنفقة عليها وصيانتها من قبل الخلفاء(٦٨) ، كذلك منح بيت تعليم الدين اليهودى بالقاهرة منحة ثابتة(٦٩) .

(٦٥) ارسل الخليفة الى بطرك القبط عشارى (مركب من اراكب الخليفة) لينقله الى مصر وعند وصوله انتظره خلق كثير ودخل الى القاهرة من باب البحر فى مركب رسمى احاط به القراء ، وحينما وصل الى القصر خرج اليه صاحب الرسالة قال له : امير المؤمنين يرد عليك السلام فسكح البطرك اى انحنى الى قرب الارض ثم دخل وحده الى الظئينة الذى عنده امه ولخته جلسان وبين ايديهم طيب كثير فمضوه به وقالوا له : (بارك علينا وعلى قصرنا) فبارك عليهم ودعا لهم ثم خرج وبعد ذلك سار مركبه الى دار الوزير ولقى الترحيب ذاته ورجع فى صحبة والى القاهرة ، ملجده ، المستنصر ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٦٩ .

(٦٦) ابو صالح الارمنى . كنائس واديرة مصر صفحات ٨٧ — ٨٨ .

(٦٧) لهند عيسى ، مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين ، فصله من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الخامس ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٤ .
Mann The Jews, I, P. 38. (٦٨)

(٦٩) عطية القوصى : اليهود فى ظل الحضارة الاسلامية ، ص ١٣ .

وفى بلاد المغرب خلال عصر الولاة ، يبدو أن أهل الذمة تمتعوا بالحرية الدينية كما تمتع بها أخوانهم فى الشرق الاسلامى فلم تشر المصادر الا لمشاركة النصارى فى الحياة الاقتصادية فى سوق القيروان وهذا يعكس ما ناله هؤلاء النصارى على وجه الخصوص من حريات وكان هناك سوق لليهود بالمدينة أيضا (٧٠) .

وفى الأندلس وضع الاسلام عند دخوله شبه الجزيرة اليبيرية حدا للاضطهادات المسيحية ، فقد كثرت اضطهادات القوط لليهود الاسبان لارغامهم على التنصر ، فاضطر الكثيرون من اليهود الى الهجرة وتظاهر بعضهم باعتناق المسيحية ، ولذلك وقف اليهود الى جانب المسلمين أثناء الفتح يدلونهم على عورات القوط (٧١) فيبدو أنهم كانوا على اتصال بأبناء ملتهم فى شمال افريقيا وعلى علم بأخبار الحرية الدينية التى كانوا يتمتعون بها فى ظل الحكم الاسلامى وقد لقي اليهود تسامحا مطلقا من العرب سواء خلال عصر الولاة أو بعده ، فكانت لهم بيعهم ورجال دينهم يمارسون شعائرهم بحرية تامة ..

كذلك لم تكن المسيحية فى اسبانيا قبل دخول الاسلام ثابتة الأركان ، ولم يكن كل النصارى آمنين على أنفسهم ولا راضين عن الوضع الذى كانت فيه الكنيسة ، كما ترك المسلمون النصارى الذين أرادوا أن يظلوا على دينهم أحرارا يفعلون ما يشاعون وان انتقل الى أمراء قرطبة الاشراف الأعلى على شئون الكنيسة وجعلوا قرطبة المركز الفعلى للنصرانية فى الأندلس ، واحتفظوا لأنفسهم بحق تعيين المطران أو اقرار انتخابه ، وكذلك الموافقة على الدعوة

(٧٠) أبو العرب : طبقات علماء افريقية ، تونس ١٩٦٨ ، صفحات ١٢٠ ، ١٢١

(٧١) مؤنبر : فجر الأندلس ، صفحات ٤٨٧ - ٥٢٢ - ٥٢٧ .

للعقد الجامع الدينية . وهذا يدل على استقلال الكنيسة الاسبانية في العصر الاسلامي عن التبعية لكنيسة روما (٧٢) .

والاشراف على الكنيسة الاسبانية لا يعنى التدخل في شئون النصارى ، فقد سار في نفس الاتجاه الذي ساد في المشرق الاسلامي من كونه اشرافا شكليا ولذلك ابقى مسلمو الاندلس على كل المؤسسات ذات الصبغة الرسمية دون أن يمسوها بأذى تطبيقا لما تحدد في عهود الأمان ولم يقف الأمر عند العاصمة قرطبة التي اتاحت لها الحرية في تنظيم جماعاتها بل تعداه الى المدن والأرياف الأخرى حيث كانت الجماعات النصرانية ملقاة حول أسواقها وقساوسها ورماتها ولم يتدخل المسلمون في شيء من هذا . فظلت الكنائس تؤدي دورها الديني والاجتماعي (٧٣) ومن دلائل هذه الحرية الدينية أن الدولة الاسلامية في الاندلس وقفت موقف الحياد الكامل من مذاهب النصارى وآرائهم .

وثمة تغيير واحد في النظام العام للنصرانية في الاندلس وهو انتقال مركز الثقل من طليطلة الى قرطبة ولم ينقل المسلمون كرسى المطرانية الكبرى من طليطلة الى قرطبة بل تركوه مراعاة لمشاعر النصارى ثم حرصوا على أن يكون المطران قريبا منهم في قرطبة (٧٣) .

الحرية المدنية :

لم تكن الحرية الدينية هي السمة المميزة للدولة الاسلامية بل ارتبطت بها أيضا الحرية المدنية وسبق أن ذكرنا أن عهود الأمان

(٧٢) نفسه ، ص ٤٩٦ .

(٧٣) نفسه ، صفحات ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٧٤) نفسه ، ص ٤٩٥ .

قد تعهدت بحماية أموال وممتلكات أهل الذمة فضلا عن انفسهم وأرواحهم ، ومن المعلوم أنهم قد اطمئنوا على ممتلكاتهم الخاصة وممتلكات كنائسهم . كما كان لأهل الذمة شئونهم الداخلية التي تركت لهم لكي ينظموها كما يشاعون وهى الخاصة بقضاياهم ومنازعاتهم الخاصة ، وتشير وثائق الجيزة فى مصر الفاطمية الى وجود محاكم خاصة لليهود تنظر فى قضاياهم (٧٥) ومنها : وثيقة ورد فيها اسم افرام بن شميريا المقيم فى القسطنطينية يعلن فيها امام محكمة حكومية قوله : نحن يهود لنا محاكمنا الخاصة (٧٦) كما كان يهود الموصل يعاقبون رؤسائهم وكان لهم سجن خاص يسجن فيه اليهود (٧٧) . ونفس الشيء يقال عن يهود الأندلس الذين كانت لهم قوانينهم الخاصة ولهم الحق فى تطبيق ما تصدره محاكمهم من عقوبات (٧٨) .

كما كان للنصارى محاكمهم الكنسية وكان رؤساء المحاكم الروحانيون يقومون فيها مقام كبار القضاة فيها يخص مسائل الميراث والمنازعات (٧٩) . وكان النصارى الأندلس قاض خاص نصرانى يفصل فى منازعاتهم يعرف بقاضى العجم (٨٠) ، وعلى أى حال فإن بعض فقهاء الاسلام أجازوا تقليد الذمى القضاء بين أهل دينه وهذا وإن كان العرف جاريا فهو تقليد زعامة ورئاسة وليس تقليد حكم وقضاء وإنما يلزمهم حكمه لالتزامهم له ولزومه لهم وإن امتنعوا عن تحاكمهم اليه لم يجبروا عليه (٨١) . لذلك اذا لجأ أهل الذمة الى

Goitein, Med. Soc., 11, P. 387.

(٧٥)

(٧٦) عطية القوسى ، المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٧٧) متر ، الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٩٥ .

(٧٨) مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٥٣٦ .

(٧٩) متر : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٩٣ .

(٨٠) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٥ .

(٨١) الماوردى ، الأحكام السنطانية ، ص ٦٥ .

حاكم مسلم في الفصل في خصوماتهم تعين عليهم أن ينفذوا حكمه ونفا للشرعية الإسلامية . قال تعالى : « **فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين** » (٨٢) .

لذلك وجدنا بعض القضاة في مصر الإسلامية يقضون بين أهل الذمة ، فالقاضي خير بن نعيم الحضرمي (١٢٠ - ١٢٨ هـ / ٧٢٨ - ٧٤٦ م) كان يقضى بين المسلمين في المسجد ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر ليقضى بين النصارى ، كما أنه يجعل شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود ويتحقق من العدالة (٨٣) . كذلك نجد القاضي محمد بن مسروق الكندي (١٧٧ - ١٨٤ هـ / ٧٩٣ - ٨٠٠ م) يسمح للنصارى المتخاصمين في الدخول في المسجد مثل المسلمين ليقضى بينهم (٨٤) ، وإن كان القضاة يجعلون للقضاء بين النصارى يوما في منازلهم (٨٥) كما كان ينظر في قضايا اليهود من خلال القضاء الإسلامي إذا ما كان النزاع بين مسلم ويهودي (٨٦) .

ويبدو عدل الإسلام وسماحته في الأحكام بين المسلم والذمي في القصاص والديات فقد تساوى الذمي مع المسلم ، فإن سرق الذمي يلزمه ما يلزم السارق المسلم من عقاب (٨٧) . كما أن دية الذمي مثل دية المسلم فيذكر عن النبي عليه الصلاة والسلام أن

(٨٢) سورة المائدة : آية ٤٢ .

(٢) الكندي : الولاية والقضاء ، ص ٣٥١ .

(٨٤) نفسه : ص ٣٩١ .

(٨٥) نفسه : ص ٣٩٠ .

Goltien, Med. Soc., 111, P. 329

(٨٦)

(٨٧) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٩١ .

رجلا من المسلمين قتل رجلا من أهل الكتاب فقال الرسول : « أنا
أحق من وفى بذمته ثم أمر بقتل المسلم » (٨٨) .

وثمة نقطة أخيرة متعلقة بمواريث أهل الذمة ، فلم يكن هناك
تشريع بين النصارى للمواريث وقد جعلهم عمر بن العزيز يتوارثون
كما يتوارث أهل الاسلام (٨٩) ؛ كما أن النصراني لم يكن يرث
اليهودى ولا اليهودى يرث النصراني وكلاهما لا يرثان المسلم
ويتضح لنا ذلك مما أورده هلال الصابى (٩٠) ، فقد ذكر أن الخليفة
المعتضد أرسل الى القاضى يوسف بن يعقوب يسأله عن مواريث
أهل الذمة فكتب له ما ورد من الرسول عليه الصلاة والسلام ،
(لا يتوارث أهل ملتين) وأن السنة جرت بأن أهل كل ملة يورثون
من هو لهم اذ لم يكن له وارث من ذوى رحمه ، كما أصدر الخليفة
المقتدر فى عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م كتابا فى المواريث أمر فيه بأن ترد
تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثا على أهل بلقه ، على
حين أن تركة المسلم ترد الى بيت المال (٩١) .

خلاصة القول أن المسلمين قد أتاحوا للشعوب المفتوحة
الحرية الدينية التى طالما افتقدوها ، فقد جاء الاسلام فى وقت ليس
فيه حرية دينية فى كل أجزاء المعمورة بل اضطهاد وتعذيب ، ثم
شملت سماحة الاسلام كل هذه الأرجاء مما دعا كثيرا من أهل الذمة
الى الدخول فى الاسلام ، فقد حصلوا على امتيازات كثيرة وهم
ذمة مما بالهم لو دخلوا الاسلام .

(٨٨) يحيى ابن آدم : الخراج ، صفحات ٧٣ — ٧٤ .

(٨٩) أبو المحسن : النجوم ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

(٩٠) تحفة الأبرار فى تاريخ الوزراء ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٤٧ .

(٩١) الجهشيارى ، الوزراء ، ص ٢٢٨ .

وظائف غير المسلمين
في
الجهاز الإداري

وظائف غير المسلمين في الجهاز الإداري

من الثابت أن العرب أبقوا على النظم الإدارية التي وجدت في البلاد المفتوحة كما كانت في كل إقليم قبل الإسلام ، وظلت هذه الدواوين تحرر بلغة الإدارة السابقة قبل الإسلام فيها يخص ديوان المال والجباية (١) ، وتغير مفهوم النظام المالي من نظام هذنه الابتزاز الى نظام يبغي اقرار العدالة ، فتركوا أهلها يعملون في الدواوين واكتفى العرب بالاعتراف على الإدارة بوجه عام .

وبدأت هذه السياسة منذ خلافة عمر بن الخطاب فوجدنا أن الولاة في صدر الإسلام قد استخدموا كتابا منهم ، فكان لأبي موسى الأشعري وإلى البصرة في هذه الفترة ، كتابا نصرانيا (٢) . وظل استخدام أهل الثمة لدى الخلفاء الأمويين ، فاستخدم معاوية بن أبي سفيان النصارى في مصالح الدولة ، فعهد إلى سرجون بن

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤٤ . كان العمل يجري في إيران والعراق بالفارسية وفي الشام باليونانية وفي مصر بالقطيعة .
(٢) ابن الأخوة ، معالم التربة في احكام الحسبة ، ص ٩٣ .

منصور الرومي بخراج دمشق ثم الى ابنه منصور بن سرجون ،
 ذلك كان كاتبه على خراج حمص (٣) نصراني هو (ابن أوثال)
 وكان لهذا الكاتب قصرا بحمص يعرف به .

كذلك سار الولاة الامويون على نفس السياسة في استخدام
 اهل الذمة ، فكان ولاية خراسان يستكتبون النصاري ، مثل
 عبد الرحمن بن زياد والى البصرة زمن معاوية الذي اتخذ كاتباً
 يدعى اسطفانوس (٤) كما استخدم عبد الله والى البصرة (٥٥ —
 ٦٤ هـ / ٧٦٥ — ٦٨٤ م) الدهاقين في جباية الخراج (٥)
 واستخدم خالد بن عبد الله القسري والى العراق في خلافة هشام بن
 عبد الملك المجوس في أعمال الخراج والادارة (٦) . معنى ذلك أن
 استخدام اهل الذمة كان على نطاق واسع حيث استخدمهم
 المسلمون ، وتأكدت عقود الأمان مع اهل الذمة من خلال منحهم
 حقوقاً لم تكن متوفرة لهم من قبل الى جانب اعطائهم الفرصة في
 الاستمرار في العمل في الدواوين .

تمنى ايران استخدم المسلمون الايرانيين غير المسلمين في
 وظائف الدولة خصوصاً في الوظائف المالية حيث وجدت طبقة
 الدهاقين التي عرفت بمهارتها المالية ونبوغها في أعمال الخراج
 ومعرفتها بالأسرار الادارية ، وقد استخدم أفراد هذه الطبقة في
 عهد الراشدين وكثر استخدامهم في عهد بني أمية (٧)
 كما كان الاحتفاظ بالوظائف الادارية في البلاد المفتوحة قد ساعد

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ٦ ، ص ١٨٢ .

(٤) الجيهياري ، الوزراء والكتاب ، ص ٢٩ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٩ .

(٦) طهوزن ، تاريخ الدولة العباسية ، ص ٣١٩ .

(٧) حسن أحمد مجاهد ، الإسلام في آسيا الوسطى ، ص ٣٩ .

على ضرورة الاعتماد على أهلها في إيران وغيرها إذ ظلت سجلات الضرائب في إيران تكتب بالفارسية ما يقرب من خمسين عاما (٨) .

ونفس الشيء حدث في الهند ، فسار المسلمون على نفس السياسة من استخدام أهالي البلاد المفتوحة في العمل في الإدارة فضلا عن الإبقاء على النظم الإدارية ولذلك استخدموا جماعات المعاهدين في وظائف الدولة (٩) .

وكانت حكومة الفسطاط تستخدم أهل النمة في إدارة البلاد ، فكان هناك كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا ومصر السفلى ، في ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر (٦٥ — ٨٦ هـ / ٦٨٥ — ٧٠٥ م) وتشير المصادر (١٠) إلى وجود كاتبين على المذهب الأرثوذكسي اثناسيوس وإسحاق ، كما كان رؤساء المالية قبطا طوال العصر الأموي هذا فضلا عن استخدامهم حكاما للأقاليم ، فكان والى الصعيد في نهاية ولاية عبد العزيز بن مروان قبطيا اسمه بطرس ولكنه اعتنق الإسلام بعد ذلك كما كان حاكم مريوط قبطيا اسمه تاوفانيس (١١) وكذلك كان جباة الضرائب في هذه الفترة من أهل النمة (١٢) .

وفي خلافة عبد الملك بن مروان تم تعريب الدواوين عام ٧٦ هـ / ٦٩٥ م بقصد تحويل أجهزة الدولة الإدارية إلى العربية ،

(٨) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٩٥ .

(٩) المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

(١٠) ساويرس ، سير ألباء البطركة ، ص ١٢ ، سيدة كاشف ، مصر في

عصر الإسلام ، ص ١٨٤ .

(١١) نفس المصدر ، ص ٥٢ .

(١٢) سيدة كاشف ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .

وتقوية الحكم العربي في البلاد المفتوحة فضلا عن ايجاد توافق في الادارات المختلفة التابعة للدولة ، فنقل ديوان الشام الى العربية في عهده على يد سليمان بن سعد والى الأردن ، فقال سرجون كاتب الخليفة لأبناء جلدته من الروم : (اطلوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم) (١٢) ، كما نقل الحجاج ديوان العراق من الفارسية الى العربية (١٤) ، لكن ديوان مصر تأخر نقله الى أوائل عهد الوليد بن عبد الملك ٨٦ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ٧١٥ م (١٥) .

وكان على أهل الذمة أن يتعلموا العربية ليظلوا في عملهم بالدواوين ، فأدى ذلك الى اقبالهم على تعلمها مع توفر رجال الادارة من المسلمين والموالي (١٦) ولذلك استمر وجودهم في الدواوين وفي غيرها ، فقد استخدم الخليفة سليمان بن عبد الملك ٩٦ — ٩٩ هـ / ٧١٥ — ٧١٨ م كاتباً نصرانياً من أهل لد يقال له البطريق بن النكا ، الذى قام بالإشراف على بناء مدينة الرملة وبناء المسجد الجامع بها وحفر الآبار (١٧) كذلك وجدنا المتوكل العباسى (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ / ٨٤٨ — ٩٦١ م) بعد أن شاد قصره المعروف بالجعفرى ، صير الفقه عليه الى دليل بن يعقوب النصرانى (١٨) كذلك كان عبد الله ابن سمعون كتبوا في ديوان الخليفة المكتفى المتوفى عام ٢٧٥ هـ / ٩٠٨ م كما أصبح بنان النصرانى كاتباً لصاحب الديوان وأسند الى مالك بن الوليد النصرانى ديوان الدار ، كما أسند ديوان الخاصة

(١٢) ابن خلدون ، المعادى ، ص ٢٤٤ .

(١٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٩٦ .

(١٥) المقرئى الخط ، ج ١ ص ٩٨ ، ثم ذلك في عام ٨٧ هـ / ٧٠٦ م .

(١٦) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٢٤٤ .

(١٧) المصدر السابق .

(١٨) ياقوت ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٨٢ ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

وبيت المال الى نصرانيين(١٩) كما استخدم بختيار كاتباً نصرانياً هو العلاء صاعد بن ثابت النصراني فى استخراج الاموال والاستيفاء على الاموال من غير وزارة(٢٠) .

ومع استقلال مصر عن الخلافة العباسية بقيام الدولة الطولونية عام ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م ، لم تتغير سياسة هذه الدولة مع أهل الذمة الذين ظلوا يعملون فى الدواوين ولم يفقدوا امتيازاتهم القديمة ، لأنه كانت لاتزال بأيديهم الخسبرات لاسيما المالية ، بل ان هناك ما يدل على انهم تسربوا الى حياة أحمد ابن طولون الخاصة وكان منهم من خدم فى قصره(٢١) وكان لخمارويه كاتباً نصرانياً هو اسحق بن نصر العبادى ، وبعد سقوط الدولة الطولونية وعودة مصر للدولة العباسية تولى عيسى النوشرى من قبل الخليفة المكتفى . الا ان الاحوال كانت مضطربة آنذاك وقامت ثورة الخلعى الذى استطاع ان يجمع الانصار حوله للقضاء على الطولونيين وانتهى بهروب عيسى النوشرى الى الجيزة ودخول الخلعى الفسطاط ، وفى تلك الفترة عين لنفسه وزيراً نصرانياً وقتله الخراج(٢٢) وبعد هزيمة الخلعى ، عاد عيسى النوشرى فاستخدم بعض الموظفين النصارى(٢٣) .

اما الدولة الاخشيدية التى لم تعمر طويلاً هى الأخرى وبقيت فى الحكم حوالى أربعة وثلاثين عاماً (٢٢٣ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩ م) فقد تمتع أهل الذمة بالعمل فى الدواوين ، كما أنه لم

-
- (١٩) عريب بن سعد ، صلة تاريخ الطبرى ، لندن ١٨٩٧ ، ج ٧ ، ص ١٢٥ .
 - (٢٠) مسكويه ، تجارب الامم - القاهرة ١٩١٥ ، ج ٢ ، ص ٣٦٦ .
 - (٢١) البلاوى ، سيرة أحمد بن طولون : تحقيق ١٩٣٩ ، ص ١٦١ ، سيده كاشف ، مصرى عهد الطولونيين والإخشيديين ، ص ١٠٤ .
 - (٢٢) أبو الحسن ، التجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٩١ .
 - (٢٣) نفسه .

يتغير شيء عما كان معمولاً به في الدولة الطولونية ، ولذلك عمل أهل الذمة في الوظائف المالية والإدارية ومنهم يعقوب بن كلس الذي عرف وقتئذ بقيامه بالأعمال التجارية لكافور الاخشيدى وعلى ما يبدو أنه استطاع أن يسيطر على النواحي المالية (٢٤) .

ومع قيام الدولة الفاطمية عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م شكل أهل الذمة من يهود ونصارى غالبية في العمل في الدواوين ، فقد انعكست السياسة العامة التي اتبعتها الفاطميون من تسامح زائد على هذه الناحية ، ووضح ذلك مع قدوم الخليفة المعز لدين الله إلى مصر عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م الذي قام بتقليد يعقوب بن كلس الذي أعلن إسلامه أيام كافور الاخشيدى ثم هرب إلى المغرب عند المعز ، الخراج ووجوه الأموال جميعها والحسبة والسواحل والأعشار والجوالي والأحباس وجميع ما يضائف إلى ذلك وما يطوى في سائر الأعمال واشترك معه في ذلك (عسلوج بن الحسن) اليهودي (٢٥) .

وفي خلافة العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م) حظى أهل الذمة بنفوذ كبير إذ لم يقتصر وجودهم فقط على دواوين المالية إنما تعداه إلى جميع فروع الإدارة ، نتيجة لزواجه من نصرانية هي أم سيدة الملك ، وتولى عيسى بن نسطورس ضبط الأمور وكذلك منشا اليهودي بعد ابن كلس ، فأساء أهل الذمة إلى المسلمين ، فعهد ابن نسطورس إلى تولية النصارى وصرف الكتاب

(٢٤) يحيى بن سعيد ، صفحات ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢٥) المقرئى ، اعطاء الحنفيا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، نشره محمد

جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٧ ، صفحات ١٩٦ - ١٩٧
Fischel, Jews in the economic and political life
of Medieval Islam, London, 1968, P. 54.

والمتصرفين من المسلمين ، منتهزا تسامح العزيز فقام المسلمون
 بلغت نظر الخليفة الى تلك الحظوة التي وصل اليها أهل النمة من
 خلال شكوى قدمت اليه في أحد مواكبه من امرأة قد صنعوها من
 الجريد والبسوها ازارا كتب فيها (والذي أعز اليهود بمنشأنا
 والنصارى بابن نسطورس وأذل المسلمين بك الا قضيت أمري) (٢٦)
 وهذه تعد اشارة صريحة لدى تسلط أهل النمة في دولة العزيز ،
 كما عبرت عن السخط العام لدى مسلمي مصر ، فتحرى الخليفة
 العزيز في هذا الأمر وعندها تأكد له حقيقة ما جاء في الشكوى ،
 أمر بالقاء القبض على ابن نسطورس ومنشأ وصودرا ، كما تم طرد
 أهل النمة من الدواوين ، لكن عادت الأمور الى مهدها السابق
 وعنى الخليفة العزيز عن ابن نسطورس بفضل شفاعته ابنه
 ست الملك ، فأعاده الى عمله على شريطة أن يرد الدواوين والأعمال
 الى الكتاب المسلمين والتعويل عليهم في شئون البلاد (٢٧) وانعكس
 تسلط أهل النمة ولاسيما اليهود فيها وصفهم به أحد الشعراء
 المصريين اسمه ابن البواب بقوله :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
 العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك

ومعنى ذلك أن تسلط أهل النمة على الادارة الفاطنية قد
 عاد الى سابق عهده واستمر أهل النمة في العمل بالدواوين أيام
 الخليفة الحاكم بأمر الله فظل المنصور بن سوريدين النصراني يتولى

(٢٦) أبو المحاسن ، السجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٧٥ ، Ibid, P. 64.

(٢٧) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

ديوان الانشاء فى عهد الحاكم (٢٨) ، ورغم رغبته فى طرحهم من الدواوين ، لكنه لم يستطع ذلك بسبب أن القبط كانوا يشكلون ثلث سكان مصر ولأن أغلبهم كان على دراية تامة بشئون الإدارة (٢٩) .

وفى خلافة المستنصر (٢٣٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) استخدم أهل الذمة فى الوظائف العليا وسيطروا تبعا لذلك على دواوين الدولة حتى أصبح مقدمو الملكة والناظرون فى دواوينها وتدبير أمور حكمها نصارى ، فضلا عن مشاركة اليهود فى السيطرة على سياسة الدولة (٣٠) . ومما ساعد على ذلك تحكم أم المستنصر فى الحكم ، حتى أصبحت الدولة فى يد أعوانها لاسيما من أهل الذمة ، فقد وقعت تحت نفوذ أبى سعد إبراهيم بن سهل بن هارون الذى عرف بالتستري وهو من أسرة يهودية أسلمت منذ عهد الحاكم واشتغلت بالتجارة والصيرفة مع تجار العراق، وقد استخدمه الظاهر فى شراء ما يحتاج اليه من تحف ومن بين ما باع له جارية استولدها المستنصر (٣١) ، فكان أمرا طبيعيا أن تجعل أبا سعد فى خدمتها ، ولما كانت هى المسيطرة من دون المستنصر الذى تولى الخلافة صغيرا دون الثمانى سننوات ، فكان لها ديوان خاص (٣٢) ينظم شئونها وكان التستري هو رئيس ديوانها والمهيمن فعلى على أحوال دولة المستنصر بفضل هذا التعيين ، فاستكثر من بنى جدته ومكثهم من السيطرة على الإدارة الفاطمية ، فعين أخاه أبا نصر رئيسا لديوان الخليفة ، وابنه أمرة الدواوين ، وعظم شأنه الى

(٢٨) الطغشندى ، صبح الامشى ، ج ١ ، ص ٩٦ .

(٢٩) ماجد ، الحاكم بأمر الله ، ص ٥٨ .

(٣٠) ابن ميسر ، أخبار مصر ، القاهرة ، ١٩٨١ . صفحات ٢ ، ٥ .

(٣١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٥ . Fischel, the Jews, P. 71.

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٢ .

ان صار ناظرا فى جميع أمور الدولة ، فلا يخرج عما يرسبه فى
شئون الدولة (٣٣) .

وتفاقت الأحوال فى الدولة الفاطمية خلال هذه الفترة نتيجة
لتدخل أم المستنصر وحاشيتها مما ادى الى حدوث كوارث الخلافة
من مجاعات وقتل الجند وسيطرة رجال اقوياء ، مما جعل المستنصر
يقوم باستدعاء بدر الارمنى لانتفاذ الخلافة وكان مجيئه عام ٤٦٧ هـ /
١٠٧٤ م وتقلده الوزارة امرا اسعد النصارى على وجه الخصوص ،
فعلى الرغم من اعتناقه الاسلام كان على علاقة طيبة مع الاقباط
فنظم أحوالهم (٣٤) ولذلك التحق بخدمته كثير من القبط من الكتاب ،
أسند اليهم عديدا من الوظائف الهامة فى مختلف الدواوين المالية
والادارية ، ومن هؤلاء راهب يعمل مهندسا اسمه حنا قام بالاشراف
على الأعمال الهندسية (٣٥) لاعادة بناء اسوار القاهرة على يد بدر ،
كما اشرف على ثلاثة من أبواب القاهرة ، باب الفتوح وباب النصر
وباب زويلة ، كما اتصل بخدمته أيضا أبو المليح مينا بن زكريا الملقب
بممانى ، الذى ظل يترقى حتى وصل الى وظيفة مستوفى الديوان
والتي تعتبر احدى وظائف الادارة العليا وقتذاك (٣٦) .

على أنه يتولى المقتردر فى أواخر القرن الثالث الهجرى عاد
(٤٨٧ — ٤٩٥ هـ / ١٠٩٤ — ١١٠٦ م) كثر عدد الكتاب النصارى
ومنهم الشيخ أبو الفضل المعروف بابن الأسقف كاتب سره والموقع
عنه فى الأموال ومتولى ديوان المجلس والنظر فى جميع دواوين

Mann, the Jews 1, P. 219. (٣٣)

(٣٤) ابن الصيرفى الاشارة الى من نال الوزارة ، القاهرة ١٩٢٤ ،

ص ٥٦ .

(٣٥) أبو صالح الارمنى ، كتابى ، وأديرة مصر ، ص ٦٥ .

(٣٦) ابن ممانى ، قوانين الدواوين ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ٢٧ .

الاستيفاء على جميع أعمال الدولة (٣٧) ، وتولى بعده نصرانى أيضا هو أبو البركات يوحنا ديوان التحقيق لفترة طويلة (٣٨) . كذلك عمل اليهود فى وظائف أخرى فى الادارة الفاطمية ومنهم (أبو المنجا ابن شعيا) الذى عمل مهندسا وأشرف على حفر القناة التى عرفت باسم (خليج ابن المنجا) عام ٥٠٦ هـ / ١١١٢ م (٣٩) .

... وفى خلافة الأمر (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ / ١١٠١ — ١١٣٠ م) أنشأ الأفضل شاهنشاه ديوانا جديدا أطلق عليه اسم (ديوان التحقيق) اختص بمراجعة سائر أعمال دواوين الدولة (٤٠) وأشرف على هذا الديوان الهام أحد اليهود ويدعى (ابن كوجك (٤١) كما عمل بديوان المجلس الذى كان له الاشراف على أموال الخليفة عدد من النصارى (٤٢) كذلك عملوا فى ديوان الانشاء ومنهم أبو الدم اليهودى (٤٣) . كما استخدم الأمر يهوديا يقال له أبو يعقوب ابراهيم على المكوس وكذلك أبو نجاح بن الراهب الذى تمكن من السيطرة على الدواوين وبالف فى محابة النصارى ومصادر عامة المصريين بكافة طوائفهم وطبقاتهم ، حتى أمر الخليفة الأمر بأن لا يولى أهل الذمة شىء من أعمال المسلمين وأصدر سجلا بهذا الأمر (٤٤) .

(٣٧) ساويرس ، سير الابهاء البطركية ، ص ٨ .

(٣٨) ابن ميسر ، اخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٤٣ .

(٣٩) المقرئى ، الخط ، ج ١ ، ص ٧١ — ٧٢ .

Fischel, the Jews, P. 88.

(٤٠) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٠١ .

(٤١) ابن ميسر ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٧ ، Op Cit.

(٤٢) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩٦ .

(٤٣) Fischel, the Jews, P. 88.

(٤٤) الطقشندى ، صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٣٦٦ .

واستمر نفوذ أهل الذمة فى خلافة الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ / ١١٣٠ — ١١٤٩ م) وكان غالبيتهم من العاملين فى مسح الأراضى الخراجية وتحصيل الضرائب من الأقباط ويوضح ذلك ما وقع من خلاف بين أحد هؤلاء الكتاب النصارى وصاحب معدية رفض أن يتنازل عن أجر تعدية الكتاب النصرانى ، فآخذ الرجل لجام بفلته فأنثت عليه أرضا مساحتها عشرون فدانا باسم أرض اللجام ، فطلب من الرجل بعد ذلك دفع خراج الأرض وضرب وبيع معديته لتأدية المال المقرر عليه ، ثم رفع شكواه للخليفة الحافظ الذى أمر بتصفح السجلات الخاصة بالناحية فلم يجد أرضا باسم أرض اللجام التى أثبتتها الكتاب على الرجل ، فأمر باحضار النصرانى وسمر فى موكب وطيف به فى سائر الأعمال (٤٥) ، كما استخدم الحافظ كتابا نصرانيا يدعى (الأخرم) وولاه أمرة الدواوين فأعاد كتاب النصارى بعد أن صرفهم الحافظ فترة . ويذكر المقرئى (٤٦) أنهم عادوا أوامر مما كانوا عليه ، تفاخروا وتظاهروا بالملابس وركبوا البغال الرائجة والخيول المسومة بالسروج وضامقوا المسلمين فى أرزاقهم واستولوا على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية ، وصودر بعض كتاب المسلمين مما يبين مدى سيطرة النصارى وسلطتهم آنئذ .

وبدئى أن يستمر نفوذ أهل الذمة فى فترة احتضار الخلافة مع الخلفاء الثلاثة الأواخر الظاهر والفائز والعاضد .

(٤٥) المقرئى ، المصدر السابق ، ج ١ ، صفحات ٤٠٥ — ٤٠٦ .
 (٤٦) انظر نفس المصدر ..
 انظر نفس المصدر .

وتطالعنا أوراق الجنيزة (٤٧) عن حقيقة التحاق اليهود بخدمة الدولة ، فنذكر احدى الوثائق التى ترجع للقرن السادس الهجرى — الثانى عشر الميلادى لكاتب مسجون مصرا على براءته وان ما فعله كان من أجل اليهود جميعا من قرائين وريائيين ، وأنه عمل فى خدمة الحكومة ، لكى يكسب عيشه ويفعل خيرا لآخوته فى العقيدة فى نفس الوقت .

ويتضح من وثيقة أخرى أن العداوة والتنافس قد وقع بين اليهود والنصارى من أجل الفوز بوظائف الدولة ، ويقرر كاتب الوثيقة التى هى عبارة عن خطاب مرسل الى يهود القسطنطينية أنه طرد من وظيفته بسبب —عناية أحد النصارى المقربين الى الوزير(٤٨) .

وما يؤكد ذلك التنافس أن بعد تولية أبى البركات يوحنا ديوان التحقيق للأفضل شاهنشاه عمل على اقضاء كل اليهود من وظائفهم الحكومية وتعرضوا للاضطهاد طيلة الثلاث عشرة عاما التى حكم خلالها(٤٩) وهذا دليل على حدة الصراع بين اليهود والنصارى للفوز بمناصب الدولة مستغلين فى ذلك روح التسامح العامة التى أتيحت لهم مما كان له عظيم الأثر .

وبوجه عام كان المتصرفون من نصارى ويهود يقسمون اليمين

Mann, the Jews 1, P. 219. (٤٧)

Ibid, P. 229. (٤٨)

(٤٩) ابو صالح الارمنى ، كنائس واديرة مصر ، ص ١٥٠ .

شأنهم شأن المسلمين ، بدأ ذلك مع الفضل بن الربيع وزير الرشيد الذى استحدث هذا الإيوان من قبل أحد كتابه (٥٠) .

وفى الأندلس طبق المسلمون سياستهم المعهودة فى الإبقاء على النظم الإدارية الموجودة كما حدث فى بلاد المشرق ، وكان هذا من منطلق احترامهم للعهود التى أبرموها مع أهالى البلاد المفتوحة ، ولذلك أقام المسلمون فى الأندلس رئيسا لأهل الذمة ولقبوه بـ (قومس الأندلس) وجعلوه مسئولا أمامهم عن كل ما يتصل برعاياهم من النصارى وأحباطوه بما يليق به من الاحترام ولم يظهر هذا اللقب الا مع عبد الرحمن الداخل وإن كانت الوظيفة قديمة والجديد هو اللقب الذى سوف يستمر بعد ذلك (٥١) . كما أن العرب تركوا للنصارى حق اختيار حكامهم وتنظيم أمورهم من خلال الانتخاب على خلاف ما كان عليه الحال أيام القوط ، واكتفى العرب بحق اختيار القومس الأعلى ، كما ظلت ألقاب الموظفين اللاتينية كما هى والتى عرفت منذ أيام الرومان والقوط (٥٢) .

وسبق أن ذكرنا أن اليهود اضطهدوا فى عصر القوط حتى أنهم عاونوا المسلمين عند الفتح ، لذلك كان طبيعيا أن يكافئ المسلمون اليهود ويجعلوهم حرسا لما يفتحونه من البلاد الى جانب الحرس الاسلامى (٥٣) واستطاع اليهود بعد ذلك أن يصلوا الى أرفع المناصب ومنهم حسيداى بن اسحق بن عزرا بن شتروط الذى

(٥٠) مقز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

(٥١) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٥٨ .

(٥٢) مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٦١ .

(٥٣) ابن الخطيب ، الاطلة فى اخبار قرطبة ، تحقيق محمد عبد الله

مغان ، المجلد الاول . القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٠٥ .

كان له الاشراف على الخزانة العامة ، كما حظى برعاية الخليفة
الناصر (٥٤) .

خلاصة القول أن أهل الذمة استفادوا الى حد كبير من روح
التسامح التى شملت العالم الاسلامى شرقه وغربه ووصلوا الى
اعلى المناصب الادارية وانفردوا فى بعض الاحيان بهذه الوظائف
نتيجة لمعرفتهم السابقة بالخبرة الادارية والمالية .

لكن هذا النفوذ الذى حازه أهل الذمة ، جعلهم فى كثير من
الاحيان يسيطرون بشكل حاد مما لجأ الحكام المسلمين الى اصدار
بعض الأوامر التى تحد من اشتطاطهم ، وهذه الأوامر لم يقصد
بها ابعادهم بشكل نهائى بقدر ما كان الغرض منها كبح جماحهم
بسبب ازدياد تعسفهم الذى لم يكن الرد الطبيعى لما تمتعوا
به من تسامح عوملوا به من قبل الحكام المسلمين شرقا وغربا على
مر الزمن .

ويرجع اصدار هذه الأوامر الى الخليفة عمر بن الخطاب الذى
نهى عن استكتاب الذميين ، وسبب هذا المنع هو تعامل أهل الذمة
بالريا ، مما يعرض مصالح الدولة للظلم والمحاباة ، ولما كان عمر
ينشد العدل دائما لذلك كان حرصه على سلامة الدولة فقد نهى
أبا موسى الأشعري عن استخدام كاتب نصرانى (٥٥) ، وكان لصبر
عبد من أهل الكتاب يقال له أسبق فعرض عليه أن يدخل الاسلام
حتى يستعين به فى بعض أمور المسلمين ، فأبى فأعتقه ثم أطلقه
وقال له : اذهب حيث شئت (٥٦) . والمقصود بهذا النهى عدم
اشراف أهل الذمة على الشؤون الخاصة بالمسلمين لأنهم ظلوا على

(٥٤) عطية القوصى ، اليهود فى ظل الحضارة الاسلامية ، ص ١١٢ .

(٥٥) ابن الاخوة ، معالم القرية فى احكام الحسبة ، ص ٩٢ .

(٥٦) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج ١ ، ص ٣٢٩ .

حالهم فى البلاد المفتوحة مع الاشراف على جباية الخراج كما هو معلوم ، ومع التعريب بدأ المسلمون يشغلون وظائف الدواوين مع استمرار أهل النمة على شريطة ان يتعلموا العربية .

لذلك نجد الخليفة التقي، عمر بن عبد العزيز يأمر عماله بعدم استخدام أهل النمة فأرسل اليهم كتابا ذكر فيه : (فلا أعلم كاتباً ولا عاملاً فى شئ من عملك على غير دين الاسلام الا عزلته واستنزلت مكانه رجلاً مسلماً) (٥٧) كما نزع عمر قبط مصر عن كورها واستعمل المسلمين عليها (٥٨) ، لكن هذا القرار لم يستمر بعد وفاته وظل الأقباط فى مصر يشغلون كثيراً من مناصب الدولة وظل بعض الموازيت (٥٩) يختارون من القبط حتى كان فى عام ١٧١ هـ / ٧٨٧ م مازوت قبطى على إحدى قرى مصر (٦٠) .

كما كتب أبو جعفر المنصور الى كافة الأعمال بصرف من بها من أهل النمة بعد أن شكوا اليه المسلمون برفع المظالم عنهم وعدم تمكين النصارى من ظلمهم وعسفهم فى ضياعهم ومنعهم من انتهاك دمائهم ، لأن المنصور كان قد أمر الذميين بقبض موجودات بنى أمية فأتخذوا من ذلك سلماً للعسف والجور بالمسلمين جميعاً (٦١) وقد عادت شوكتهم أيام الخليفة المهدى وكان منهم نصرانى بالبصرة غبظلم الناس من معاملته الى المهدى فأحضر وكلاء النصرائى

(٥٧) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٦٥ .

(٥٨) الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٦٩ .

(٥٩) موازيت معناها رؤساء أو مشايخ القرى ، انظر سيده كاشف ، مصر

فى فجر الاسلام ، ص ٣٨

(٦٠) نفس المرجع ، ص ١٩٤ .

(٦١) ابن القيم الجوزية ، احكام أهل النمة ، صفحات ٢١٤ - ٢١٥ .

واستدل بالبينة فشهدوا على النصراني بظلم الناس وتعدى مناهج الحق(٦٢) .

كذلك لم يكن صرف المتوكل لأهل الذمة عن الأعمال إلا لأنهم قد غلبوا على المسلمين وتجاوزوا الحد في التعسف بهم وكان منهم من يخدم أم الخليفة وأهله وأقاربه وكانت الأعمال لكبارهم وعامتها في أيديهم ، فضلا عن ذلك فحاولوا أن يشوهوا صورة المسلمين أمام الخليفة وأنهم بين مفرط وخاسر من خلال مؤامرة أعدوها حوت أسماء كثير من المسلمين وبعض أسماء من أهل الذمة بغرض التهميه لينالوا من سبعة المسلمين(٦٣) .

وفي عام ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م أمر الخليفة المتوكل بالآلا يستعان بأهل الذمة في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري أحكامهم فيها على المسلمين(٦٤) كما أمر بعزل القبط عن مقياس النيل في مصر(٦٥) .

على أنه بتولى المقتدر في أواخر القرن الثالث الهجري خاد العمال الذميون إلى ما كان بأيديهم ورجعوا إلى سالف قوتهم وبدأ نجمهم يعلو مرة ثانية وغلبوا على الكتاب فأمر الخليفة المقتدر عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م بعزل كتاب النصارى وعمالهم وآلا يستعان بأحد من أهل الذمة ، وضمن كتابه إلى نوابه (ممن نكث وطفى وخالف أمير المؤمنين وسعى في افساد دولته ، عاجله أمير المؤمنين بسطوته

(٦٢) نفس المصدر .

(٦٣) نفس المصدر : ص ٢١٦ .

(٦٤) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج ٩ ، صفحات ١٧١ - ١٧٢ .

(٦٥) المتريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

كذلك إلا يستخدم أحد من اليهود والنصارى إلا نى الطب والجهيزة(٦٦) .

كذلك كثرت الشكاية من أهل الذمة حتى زمان الخليفة الراضى ، فكتب إليه الشعراء فى ذلك(٦٧) وكذا فى أيام الأمر وامتدت أيدى النصارى وبسطوا سلطانهم وتفننوا فى اذى المسلمين(٦٨) وهذا يبين أن هذه الأوامر تأتى متزامنة مع تسلط أهل الذمة ولكنها لا تسرى لفترة طويلة بدليل علو نجمهم مرة ثانية فى فترات قريبة وكان لسيطرة أهل الذمة على الشؤون المالية ، يجعل العامة يثورون على وضعيتهم كنوع من الاحتجاج(٦٩) .

وفى خلافة الحاكم فى مصر اشتعلت أوامره الكثيرة تجاه أهل الذمة على أبعاد النصارى بوجه خاص عن الخدمة فى الدواوين ، وذكر بعض المؤرخين أنه قد تجاوز فى صرف هؤلاء الكتاب بقطع أيدى بعضهم ، ولكن على ما يبدو أن هذا التصرف يرجع أساسا الى تعسف هؤلاء الكتاب بدليل أنه فى نفس الوقت صرف أحد الكتاب المسلمين وهو صالح بن على الرونبادى وقرر مكانه ابن عبدون النصرانى فوقع وكتب عن الحاكم بعض القرارات الخاصة بهم ومنها أمره بهدم كنيسة القيامة(٧٠) ، ومما يؤكد أن هذا المنع لم يستمر أن الأقباط ظلوا يعملون فى الدواوين متمتعين بكل امتيازاتهم السابقة ولعل السبب فى ذلك هو مطالبة الكتاميين الذين اتوا من المغرب مع المعز على دفع اليهود والنصارى من مناصب الدولة(٧١)

(٦٦) أبو الحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

(٦٧) المسعودى ، مروج الذهب: ومعادن الجواهر ، ج ٤ ، ص ٢١٨ .

(٦٨) ابن القيم الجوزية ، احكام أهل الذمة ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

(٦٩) سيدة كاشف ، مسر فى عهد الاخشيديين ، ص ٢٤ .

(٧٠) المتريزى الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٧١) ماجد ، الحكم بأمر الله ، ص ٣٠ .

وهذا الموقف الذى وقفه الكتاميون من اليهود خاصة قد حدث فى اعقاب اشتباك وقع بينهما بعد تشييع جنازة أحد علماء اليهود عاشتاك الكتاميون مع اليهود العائدين من الجنازة مما أدى الى حبسهم وتجمع اليهود عند قصر الخليفة طالبين العفو منه فقررت المحكمة براءة اليهود بعد محاكمتهم فأطلق سراحهم فنظموا مسيرة شكر الى بلاط الخليفة ثم توجهوا الى معبدهم وصلوا صلاة الشكر (٧٢) .

كما أمر الخليفة الحافظ بعدم استخدام النصارى فى الدواوين وهذا الاجراء كان بسبب ما ارتكبوه من أخطاء أساءت الى سمعة الخلافة ، لكن سرعان ما عادوا مرة ثانية وغلبوا على العمل فى الادارة الفاطمية (٧٢) .

خلاصة القول ان الدولة الاسلامية قد أتاحت لأهل الذمة الفرصة فى المشاركة فى العمل فى الدواوين من منطلق الاستفادة من خبراتهم فى البداية وظل نفوذ أهل الذمة شرقا وغربا حتى زاد مساهمتهم مما الجأ بعض الخلفاء الى اصصدار بعض الاوامر لمنع استخدام أهل الذمة .

ولم يقتصر دور أهل الذمة على العمل فى الادارة الاسلامية بل تعداه الى الالتحاق بالجيش الاسلامى ، ومعلوم أن الذمى كان يدفع الجزية مقابل حمايته لأنه لم يشترك فى الدفاع ، لأن معنى ذلك الحصول على العطاء الذى يعد حقا لكل مسلم ، لكن بمضى الزمن سمح لهم بالاشتراك فى الجيش الاسلامى وربما يكون ذلك مرتبطا بما أسلفناه من مشاركة الخمين للمسلمين فى الدفاع وعدم دفع

Mann, the Jews, 1, PP. 31 — 32. (٧٢)

(٧٢) المرفىزى ، الخطب ، ج ١ ، ص ٤٠٦ .

الجزية ، ففى مصر خلال عصر الولاة كان ملحقا بالجيش طائفة تسمى المطوعة ، ربما كان أساسها أهل البلاد الذين كانوا فى جيش مصر أثناء الفتح العربى لها ، لكن هؤلاء المطوعة لم يدخلوا فى صلب الجيش ونم يشاركوا اشتراكا تعليا فيه ويغلب على الظن انهم كانوا يقومون بأدوار ثانوية فى أوقات الضرورة (٧٤) . ولم يثبت هؤلاء المطوعة فى الديوان وكان عطاؤهم من الصدقات (٧٥) .

كذلك سمح الأمويون بتجنيد أبناء البلاد المفتوحة للاشتراك فى المعارك شرقا وغربا ، فإذا كان البربر اشتركوا فى فتح الاندلس فاننا وجدنا الأمويين يشركون أهل البلاد فى اقليم ما وراء النهر فى جيش الغزو حتى ولو كانوا على غير الاسلام ، وبالفعل اشتركت قوات كبيرة منهم فى جيش قتبية بن مسلم ، فوفد اليه المطوعة بن بخارى وكش ونسف وخوارزم ، حتى ان الدولة الأموية جندت نحواً من عشرين الفا من هؤلاء (٧٦) .

كما تولى أهل الذمة أمرة الجيش الاسلامى فى بعض الأحيان ، مما يؤكد مدى التسامح الذى أعطى لهؤلاء واعطاء الفرصة للوصول الى أرقى المناصب ففى خلال القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى تقلد ديوان جيش المسلمين رجل نصرانى ، فعندما لام الناس الوزير ابن الفرات على ذلك ، دافع عن نفسه بأنه اقتدى بالخلفاء والسابقين الذين ولوا النصرارى وظائف الدولة (٧٧) .

(٧٤) سيدة كاشف ، مصر فجر الاسلام ، ص ٨٣ .

(٧٥) الكتدى ، الولاة والقضاة ، صفحات ٤١٨ — ٤١٩ .

(٧٦) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٠١ ، حسن محمود ، الاسلام فى

آسيا الوسطى ، ص ١٢٣ .

(٧٧) هلال السابى ، تحفة الأبراء ، ص ٢٤ ، روفائيل بابو اسحاق ، احوال

نصارى بغداد ، ص ٥٩ .

كما وصل أهل الزمة الى أعلى المناصب وهى الوزارة ، لكن هذا الأمر لم يتم فى الخلافة العباسية الا مؤخرا خلال القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى ، خلال سيطرة البويهيين ، فأتخذ عضد الدولة البويهى (٣٦٦ — ٣٧٢ هـ / ٩٧٦ — ٩٨٢ م) وزيرا نصرانيا وهو نصر بن هرون وأذن له فى عمارة البيع وإطلاق الأموال لفقراء النصارى (٧٨) وفى مصر بعد زوال الدولة الطولونية وعودة مصر الى حظيرة الدولة العباسية قام محمد الخنجرى بثورة وحكم الفسطاط من دون والى العباسى عيسى النوشرى واتخذ لنفسه وزيرا نصرانيا (٧٩) ، كما تولى الوزارة للأخشيدي أحد النصارى وهو أبو الين قزمان بن مينا (٨٠) .

وفى مصر الفاطمية استطاع أهل الزمة أن يصلوا الى منصب الوزارة ومنهم يعقوب بن كلس اليهودى الذى أسلم ووزر للخليفة العزيز (٨١) ، وبعد وفاته عام ٣٨٠ هـ / ٩٩١ م تولى الوزارة عيسى ابن تسطورس بفضل تدخل زوجة الخليفة العزيز (٨٢) ، وأدى ذلك الى تولية النصارى بكثرة فى عهده ، كما أسلفنا ، فى الدواوين وكان منهم أيضا الولاة ، فكان هناك وال يهودى على بلاد الشام هو منشأ بن ابراهيم الفراء (٨٣) كما كان لتولى أبى سعد التستري ديوان الملكة أم المستنصر أثر فى تولية اليهود بعض المناصب

(٧٨) ابن الاثير الكامل ، ج ٧ ص ١٠١ .

(٧٩) أبو المحاسن ، المجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٤٧ .

(٨٠) ساويرس ، سير الإباء البطركة ، ص ٩٨ .

(٨١) المغربي ، الخط ، ج ٢ ، ص ٦ .

Mann, the Jews 1, PP. 19 — 20.

(٨٢) أبو المحاسن ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٧٥ .

Fischel, the Jews, P. 84.

Ibid. P. 62. (٨٣)

الهامة ومنهم صدقه بن يوسف الفلاحى الذى أعتنق الاسلام وكان
أهله من يهود حلب الذى وزر للمستنصر عام ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م (٨٤) .

كذلك استوزر الخليفة الحافظ أرمنيا نصرانيا اسمه بهرام ،
وربها جاء ضمن الأرمن الذين أتوا الى مصر مع بدر الجمالى وابنه
الأفضل ، وتخرج بهرام فى وظائف الدولة الفاطمية ، فكان قائدا فى
الجيش ، ثم حاكما على الغربية وكان توليه الوزارة عام ٥٢٩ هـ /
١١٣٥ م (٨٥) ولكن وجه الخطورة فى دخول بهرام للوزارة أنه كان
وزير تفويض ، وقد أجاز فقهاء الاسلام بأنه يجوز أن يتولى وزارة
التفويض أهل الذمة وان لم يجز أن يكون وزير التفويض منهم (٨٦)
لأن وزير التفويض يتدخل فى أمور خاصة بالاسلام منها القضاء
والدموة ، لكن الخليفة حل ذلك بأن جعل تولية القضاة والدموة
من جانبهم .

وفى الأندلس برزت بعض الشخصيات من أهل الذمة ،
واستطاع احدهم أن يتولى الوزارة فى عهد حكم بنى زيرى لمنطقة
غرناطة وهو الرابى اسماعيل ابن نغالة اليهودى (٣٩٣ -
٤٠٩ هـ / ٩٩٣ - ١٠٥٠ م) وأصله من مدينة غرناطة التى شكل
فيها اليهود غالبية ، وتولى اسماعيل الوزارة والكتابة للملك حبوس
ابن زيرى ولابنه الملك باديس بن حبوس ، ويدهى أن ينحاز الى
بنى جلدته فأتخذ منهم عمالا ومقصرين فى الأشغال (٨٧) فضلا

(٨٤) ابن بيسر ، أخبار مصر ، ج ٢ ، صفحات ٤ - ٥ .

(٨٥) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .

(٨٦) الموردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٢٧ .

(٨٧) ابن هدارى ، البيان ، المغرب ، فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق
برونسلال ، بيروت ١٩٦٧ ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ .

عن الاستكثار منهم في وظائف الدولة والالتحاق بالجيش ومساواتهم في هذا الأمر بالمسلمين (٨٨) . وبعد وفاته تولى ابنه يوسف الوزارة لباديس وأحرز نفس المكانة ، ومما ساعد على علو مكانته ما تميز به من صفات ، فذكر ابن عذارى (٨٩) : (لم يعرف ذل الذمة ولا قذر اليهودية وكان جميل الوجه حاد الذهن ، فأخذ نفسه بالاجتهاد في الأحوال واستخراج الأموال واستقل اليهود أخوانه على الأعمال فزادت منزلته) .

صفوة القول ان مناخ الحرية الذي عاش فيه اهل الذمة في دار الاسلام قد هيا لهم نفوذا وسلطانا لم يتح لهم قبلا في اليهود التي سبقت الاسلام .

(٨٨) مطية القومى ، اليهود في ظل الحضارة الاسلامية ، ص ١١٨ .
(٨٩) المصدر السابق ، ج ٣ ، صفحات ٢٦٤ - ٢٦٥ .

الفصل الرابع

دور غير المسلمين في الحياة الاقتصادية

- التجارة
- الصيرفة
- الجبسة

دور غير المسلمين في الحياة الاقتصادية

أتاحت الدولة الإسلامية لأهل الذمة المشاركة في الحياة الاقتصادية بما كفلته لهم من حقوق وحريات ، كما ساعدت فترات الازدهار الاقتصادي التي شملت مختلف النواحي في العصر العباسي الأول ، وما تلاه أيضا في القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي من تألق الذميين في هذا المجال .

فقد قررت الحكومة الإسلامية مبدأ الحيابة والملكية للفلاحين كافة الذين كانوا محرومين منها ، وقد ارتبط ذلك بفرض ضريبة الخراج التي كانت بالقياس إلى الضرائب القديمة خفيفة العبء (١) ، كما وضعت الضوابط التي تحافظ على أرض الذمى مثل المسلم . فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الاضرار بأرض الغير . وقد قال : (ملعون من ضار مسلما أو غيره ملعون) ، وكتب عمر بن الخطاب إلى عبيدة يأمره أن يمنع المسلمين من ظلم أحد من أهل

(١) حسن محمود ، الإسلام في آسيا الوسطى ، ص ٢٤ .

الذمة (٢) ، بمعنى أنه لا يحل لمسلم أن يعتمد الاضرار لجاره لتفريق أرضه أو لتحريق زرعه في شيء يحدثه في أرضه .

كما نهى الخليفة عمر بن الخطاب عن شراء أرض أهل الذمة وعقاراتهم (٣) وهذا الأمر مرتبط بالمحافظة على ملكياتهم بما يتفق وعهود الأمان التي أعطيت للذميين لحماية أراضيهم وما يملكون ، والمصادر تذكر لنا الكثير مما حازوه من أراض وعقارات ، مما يؤكد تمتعهم بجميع الحقوق المدنية التي ساعدتهم على الظهور في المجتمع الاسلامي .

واضح أيضا تسامح المسلمين في التعاون مع أهل الذمة والاستفادة من خبراتهم المختلفة ، وبخاصة في انشاء البحرية الاسلامية ، فقد استعان الأيوون بأقباط مصر في انشاء ميناء تونس ودار صناعتهما (٤) عندما أمر الخليفة عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز والي مصر بإرسال ألف قبلى بأهله وولده الى أفريقية لانشاء ميناء تونس ، كما سبق أن استخدم معاوية المصريين في بناء الأسطول السوري في عكا (٥) .

كما كانت سياسة الرفق التي اتبعتها الدولة الاسلامية ، فيما أصدرته من قرارات ضريبية شملت مختلف أوجه النشاط الاقتصادي قد دفعت هؤلاء الذميين الى المشاركة الفعلية في الحياة الاقتصادية فالضرائب التي فرضت عليهم من خراج وجزية لم تثقل كاهلهم ، كما أنهم كانوا لا يدفعون ضرائب على مواشيهم من الابل والبقر

(٢) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٠٧ .

(٣) يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٣٣ .

(٤) ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٤٩ .

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٢٤ .

والغنم (٦) . كذلك تساوى أهل الذمة العاملين فى استخراج المعادن مع المسلمين فى الضريبة المفروضة عليهم والمقدرة بالخمس (٧) . فضلا عن الضريبة المخففة التى فرضت عليهم لقاء ممارستهم للنشاط التجارى ، فيؤخذ منهم نصف العشر مرة واحدة فى السنة ، ولا يؤخذ من أقل من مائتى درهم شىء (٨) .

وحرص المسلمون على ألا يتجاوز العمال الأموال المقررة فى تحصيل هذه الضرائب ، لذلك وجدنا الخليفة عمر بن الخطاب يشمل أهل الذمة بعذله ، فما شكوا منهم مظلوم واليا ، هما كان قدره إلا وأنصفه منه يذكر القاضى أبو يوسف (٩) أن زياد بن حدير الأسدى كان والى عمر على عشور العراق والشام ، فمر عليه رجل من بنى تغلب من نصارى العرب ومعه فرس فقومها بعشرين ألفا ، فقال : أعطنى الفرس وخذ تسعة عشر ألفا أو أمسك الفرس وأعطنى ألفا ، فأعطاه ، ثم مر عليه راجعا فى سنته فقال له التغلبى : كلما مررت بك تأخذ منى ألفا ، ورجع التغلبى الى عمر وقص عليه قصته فعندما رجع التغلبى الى زياد وجد كتاب عمر قد سبق اليه قائلا فيه : (من مر عليك فأخذت منه صدقة (١٠)) ، فلا تأخذ منه شيئا الى مثل ذلك اليوم) . كما تكررت الشكوى من أحد المارين بالتجارة فأنصفه الخليفة (١١) .

(٦) يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٦٢ .

(٧) نفسه ، ص ٣٣ .

(٨) أبو يوسف ، الخراج ، صفحات ١٤٢ - ١٤٤ .

(٩) نفسه : ص ١٤٦ .

(١٠) نصارى تغلب بسومت عليهم الصدقة لقربهم من العدو ، كما أنهم

الوحيدون من أهل الذمة الذين دُعوا ضرائب على مواشيهم . انظر يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٦٢ .

(١١) أبو يوسف ، المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

أما الخليفة عمر بن عبد العزيز فقد ضمن لأهل الزمة ما يدفعونه من ضرائب التجارة من خلال ما يحصلون عليه من كتب من القائمين على تحصيلها تثبت استيادتهم لها (١٢) .

كذلك تضمنت نصائح القاضي أبى يوسف (١٣) للخليفة الرشيد : أن يولى العشور (١٤) قوما من أهل الصلاح والدين ، ويأمرهم أن لا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به ، فلا يظلموهم ولا يأخذوا منهم أكثر مما يجب وعليهم أن يمتثلوا ما رسمناه لهم ، ثم تفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يبر عليهم ، فإن تجاوزوا ما قد أمروا به عزلت وعاقبت وأن كانوا قد انتهوا الى ما أمروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعاهد أحسنت اليهم » وبذلك أراد أبو يوسف أن يرفع الظلم عن المارين من التجار وأن يصلح الجهاز الجمركى .

التجارة :

وأتاححت الدولة الاسلامية لأهل الزمة الاشتغال بالتجارة بما أتيح لهم من حرية الانتقال داخل العالم الاسلامى . فقد حوى عهد أهل بعلبك (١٥) : (ولتجارهم أن يسافروا الى حيث أرادوا من البلاد التى صالحنا عليها) ويدهى أن ينسحب هذا على جماعات المعاهدين الذين شملتهم دار الاسلام وشجع على ذلك ما شهدته التجارة من انتعاشة لما قام به خلفاء العصر العباسى الأول من

(١٢) نفسه .

(١٣) نفسه ، صفحات ١٤٢ - ١٤٣ .

(١٤) العشور هى الرسوم التى تؤخذ على أموال وعروض تجارة أهل الحرب وأهل الزمة المارين بها على شغور الاسلام وأول من وضعها الخليفة عمر ابن الخطاب . نفسه ، ص ١٤٥ .

(١٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٣٦ .

اصلاحات فى الحياة الاقتصادية انعكست عليها بشكل مباشر وماحدث أيضا فى القرن الرابع الهجرى من انتعاشة اقتصادية شملت العالم الاسلامى كله ، بسبب وجود كيانات سياسية كبيرة حكمت العالم الاسلامى واصبحت لها السيادة على البحار ، فقامت الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر والشام واتسعت دولة السامانيين بفصل التوسع التجارى ، كما توسع الغزنويون فى الهند وأيضا تم فتح مغاليق التجارة مع بيزنطة (١٦) ، وما ادى ذلك الى ازدياد سفن المسلمين وقوافلهم كل البحار والبلدان (١٧) .

ومن سمات تلك الفترة تنوع الطوائف التى عملت بالتجارة ، فأسهم فيها المسلمون والنصارى واليهود والمجوس والهنود أتباع (بوذا) وغيرهم ، وهم ليسوا متنوعين فحسب بل لا ينفصلون عن بعضهم يسافرون ويعملون جنبا الى جنب ، وكان التجار المسلمون يهبون لمساعدة اخوانهم اليهود اذا مسهم الظلم (١٨) .

وكانت التجارة الكارمية تشكل احد أوجه النشاط التجارى فى هذه الفترة والتى تنسب الى فئة من كبار التجار اثستغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الاقصى فى التوابل والسلع الأخرى خاصة فى مصر الفاطمية ولذلك كانت حكومة الفاطميين تقوم بحماية تجار الكارم فى البحر الأحمر . وشارك فى هذه التجارة المسلمون واليهود ، بل كانت هناك بينهما مشاركة فى بعض الأحيان . كما أن غالبية التجار اليهود الذين انخرطوا فى تجارة الشرق ، استقر

(١٦) محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الاسلامى ، الدار البيضاء ١٩٨٠ ،

ج ٢ صفحات ١٣٣ - ١٣٤ .

(١٧) مقز ، الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٣٧١ .

(١٨) كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، بيروت ١٩٨٣ ،

ص ١٥٢ .

منهم أعداد كبيرة زمن الفاطميين فى مصر واليمن وفى الهند نفسها ، فضلا عن أن عددا كبيرا منهم كون ثروات طائلة من تجارة الكارم مثل بنى سهل (١٩) . كذلك عما بها أيضا تجار مغاربة مسلمون ويهود (٢٠) ، وعمل أيضا بعض النصارى فى هذه التجارة ، فكان بطريق اليعاقبة الأنبا يونس بن أبى غالب ، يعمل حتى عام ٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م تاجرا فى الكارم ويتردد على بلاد الهند واليمن وحصل على أموال كثيرة من هذه التجارة (٢١) .

وكان ظهور التجارة الكارمية أحد الأسباب التى أدت الى توقف نشاط تجار اليهود الذين يقال لهم الرهدانية أو الراذانية ، الذين أتاحت لهم الدولة الإسلامية حرية الانتقال بين دار الاسلام ودارالحرب ، فاحكموا الصلات التجارية بين الدارين وقاموا بدور هام فى تجارة العبور العالمية (٢٢) ويذكر ابن خرداذبة (٢٣) (وكانوا يسافرون بين الشرق والغرب ويحملون من فرنجة الخدم والغلمان والجوارى والديباج والخز الفائق والفراء والسمور ويركبون البحر من فرنجة ويخرجون بالفرما ويحملون تجسارتهم على الظهر الى القلزم ، ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم الى جدة ثم يمشون الى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المسك العود والكافور والدار صينى وغير ذلك ، ويرحلون الى القلزم ثم يتجولون الى الفرما ويركبون البحر المغربى فربما عولوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها للروم وربما صاروا بها الى بلاد الفرنجة

-
- (١٩) عملية القوصى ، أضواء جديدة على تجارة الكارم ، فصله من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مجلد ٢٢ ، ١٩٧٥ ، ص ٢٣ .
(٢٠) نفس المرجع ، ص ٢٤ .
(٢١) نفس المرجع ، ص ٣١ .
(٢٢) ميهود اسماعيل ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .
(٢٣) المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٩ ، صفحات ١٥٣ — ١٥٤ .

فباعوها هناك وان شاعوا حملوا تجارتهم فى البحر الغربى فخرجوا
بأنطاكية وساروا الى الفرات فركبوا الى دجلة الى الابله ، الى
عمان والهند والصين . وكانوا يتكلمون العربية والافرنجية
والفارسية والرومية) .

واسسفت هذه التجارة العالمية بداية من العصر العباسى
الاول وما تلاه عن نشوء أسلوب جديد فى المعاملات المالية ليوافق
الحركة الكبيرة فى الأسواق والاموال المتدفقة بين الشرق والغرب ،
وحتى يجد وسائل مأمونة للدفع بعيدة عن اللصوص ، فنشأ النظام
المصرنى ولجأ كثير من الناس للتعامل مع أصحاب المصارف(٢٤) ،
كما ارتبط بها أيضا التوسع المدينى والعمرانى ، حتى تضاعفت أعداد
أهل الذمة فى المدن الكبرى وبخاصة بغداد واشتغلوا فيها بالأعمال
التي درت عليهم الأرباح الوفيرة ، لأنهم أهل معرفة بالحساب
والكتابة والخراج لاسيما النصارى(٢٥) .

الصيرفة :

أذلك لعب أهل الذمة دورا ملموسا فى العمل بالصيرفة منذ
هذه الفترة ، كما ازداد احتكارهم لهذه الوظيفة خلال القرن الرابع
الهجرى بسبب ما شهده العالم الإسلامى من انتعاشة على الصعيد
التجارى كما أسلفنا ، وما ترتب عليه من اهتمام الدولة العباسية
بتحسين العملة فبدأت العملة الذهبية تنفذ شرقا ، وهذه كانت أكبر
علامة من علامات وحدة التجارة الإسلامية ، فدخلت العملة الذهبية
بغداد وجاء حساب الحكومة بالدنانير وتم هذا فى الفترة بين عامى

(٢٤) متر ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

(٢٥) جورجى زيدان ، المدن الإسلامى ، القاهرة ١٩٥٨ ، ج ٤ ، ص ١٣٧ .

(٢٦) متر ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .

٢٠٦ - ٣٠٣ هـ / ٨٧٤ - ٩١٥ م (٢٦) وانتقل ذلك الى الولايات الاسلامية كافة وبعد ما كان التعامل في القرنين الماضيين بالفضة في الولايات الشرقية وبالذهب في الولايات الغربية ، فأصبح التعامل بالذهب مما ساعد على الاستمرار في الاعتماد على من يقومون بتحويل العملة من فضة الى ذهب وكذلك القيام بتقدير قيمتها ومراقبة سلامة النقد لصالح الدولة (٢٧) .

وكان احتكار اهل الذمة للعمل بالصيرفة ، يرجع الى عدم رغبة المسلمين في أن يكون أولادهم خدمة لاهل الذمة العاملين بها (٢٨) وان عمل بها بعض المسلمين امثال المانرائيين (٢٩) في مصر الاخشيدية الذين كانوا في الاصل تجارا فرسا من أحد أعمال البصرة واستقروا في سيراك حتى أواخر القرن الثالث الهجري ثم انتقلوا الى مصر .

ولم يكن الصيرافة بشكل عام سوى تجار في الاصل ، فلم توجد بين الصيرفة والتجارة في تلك الفترة الحدود الفاصلة التي نعرفها اليوم (٣٠) .

ولما اذكت حركة النشاط التجاري في العالم الاسلامي ، انتشر الصيرافة في المدن التجارية الهامة ، ففي الكوفة اشتغل الصيرافة بتحويل الدراهم الفضية الى دنانير ذهب وحل مشكلة تنوع جودة النقود من العملة الواحدة واختلاف أوزانها بصرف هذه الأنواع

Fischel, Jews, P. 3. (٢٧)

(٢٨) القوصي ، اليهود ، ص ٧٥ .

(٢٩) سيدة كاشف ، مصر في عهد الاخشيديين ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، صفحات

٣٧ - ٣٩ .

(٣٠) كلود كامن تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص ١٦١ .

بعضها ببعض حسب حاجات أصحابها(٣١) ، وكذلك انتشروا في أسواق مدينة البصرة ، حيث كان يجتمع صيارفتها مع تجار الجملة في سوق خاص من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى المساء لتصفية الحسابات التي بينهم(٣٢) . وكان أسلوب التعامل يتم من خلال كل من معه مال يعطيه للصراف ويأخذ منه صكاً ثم يشتري كل ما يلزمه ويحول الثمن على الصراف ، فلا يستخدم المشتري شيئاً غير صك الصراف مادام مقيماً بالمدينة(٣٣) . وفي بغداد كان لهم مكان خاص في سوق الكرخ في درب عرف بدرب عون(٣٤) . وعمل اليهود بالصيرفة بالقرب من أصفهان حيث كان لهم بها سوق خاص(٣٥) ، وكذلك بمدينة تستر حيث كان أغلب التجار يهوداً وأن كانوا يعملون بصناعة البسط وكانوا صيارفة أكثر منهم صناعاً(٣٦) .

وشارك النصاري اليهود في العمل بالصيرفة وازدادت أعدادهم حتى أنه كان في أواخر القرن الثالث الهجري أغلب الصيارفة منهم في الدولة الإسلامية(٣٧) .

وكان للصيارفة بالفسطاط سوق يعرف بـ (سوق الصيارفة وهو مقابل لسوق السيوفيين في عهد الفاطميين(٣٨) . وعند مجيء

-
- (٣١) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، بغداد ١٩٤٨ ، ص ١٧٠ .
 (٣٢) نفسه ، ص ١٧١ .
 (٣٣) ناصر خسرو ، سفرنامه ، تحقيق وترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٩٦ .
 (٣٤) مسكويه ، تجارب الامم ، ج ١ ، ص ٣٤٧ .
 (٣٥) المصدر السابق ، ص ١٠٢ .
 (٣٦) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، لندن ١٩٠٩ ، ص ٣٢٨ .
 (٣٧) الدوري ، المرجع السابق ، ص ١٧٣ .
 (٣٨) الميرزى ، الخطط : ٢ ، ص ٩٧ .

جوهـر عارضـه صيارفتـها عنـدما أقـدم عـلى اصـلاح النـظام النقـدى وتـحديـن مـقادير كل عـمـلة فـقاموا بـثـورة ، الا أن جـوهـر هـدد بحـرق مـكان الصـيارفـة مـما جـعلـهم يـخضـعون لـأوامـره وكن أغـلبـهم مـن الـيهـود (٣٩/١٩٩٠) ، كـما تـذكـر المـصـادر (٤٠) أن زـوجـة الـاخـشـيد أودـعت لـدى أحـد الـيهـود جـواهرـها مـع دخـول الفـاطمـيين مـصر ، فلـما طـالبـته أنـكرها ، فـشـكـته عـلى الخـليفـة المـعز الذـى أعـاد لـها جـواهرـها .

وقـد ألـقت وثنـائـق الجـنـيزة (٤١) الضـوء عـلى عـمـل الصـيارفـة فـى مـصر خـلال العـصر الفـاطمـى ، فـكانوا يـقـومـون فـى الأصـل بـدور الوـسـاطـة بـيـن النـاس ودار الضـرب ، فـيأخـذون مـن النـاس العـمـلة المـختـلفـة والمـعادن الثـمـينة و يـعـطـونـهم ما يـساوـيها فـى القـيمـة الرـسمـية مـن الذنـائـير ، لـذـلك حـفلت هـذه الوثنـائـق بـعـبارـات مـختـلفـة تـدل عـلى هـذا الدـور ومـنها اشـتـريـت ذنـائـير مـن الصـراف وأرسلت فـضة لـبيـعها عـند الصـراف .

وتأثـرت الصـيرفـة بـازدهـار التجـارة العـالمـية ، فتوسـعت أـمـالـهم عـلى القـيام بـعـمـل البـنوك الحـالـية ، وهـو قـبـول ودائـع النـاس وتـقـديـم سـلف وقـروض للتـجار مـقابـل فـوائـد مـحدـودة ، وقـام الكـثـيرون بـايـداع أـمـوالـهم عـند هـؤـلاء الصـرافـيين ومـنـهم أبـو عـلى الخـازن حـيث أودع خـمـسين ألف دـينـار عـند صـراف (٤٢) كـذلك أودع أبـو زـيد عـلى ابـن عـيسـى ألف دـينـار عـند صـراف آخـر (٤٣) .

-
- (٣٩) المـعـريزى ، اتـعـاظ الحـنـا ، القـاهـرة ١٩٦٧ ، ج ١ ، ص ١٢٢ .
(٤٠) أبـو المـحـسن ، النـجوم الإزاهـرة ، ج ٤ ، ص ٧٨ .
(٤١) Goitein, Med. Soc., 11, PP. 280 — 281.
(٤٢) مـسـكـويه ، تجـارب الأيـم ، ج ٢ ، ص ٨٨ .
(٤٣) المـصـلبى ، حـفـة الأبراء ، ص ٢٩١ .

الجهبذة :

كما صاحب وظيفة الصيرنى أنئذ وظيفة الجهبذ ، التى ظهرت فى الدولة العباسية جنباً الى جنب مع الصيارفة كوظيفة مشتقة منها واستمرت هذه الوظيفة خلال القرنين الثالث والرابع وظلت موجودة بعد هذه الفترة(٤٤) واختلفت التفسيرات حول وظيفة الجهبذ ، فالبعض لم يفرق بين الجهبذ والصراف(٤٥) ، أو أنه صاحب مصرف أو تاجر أو أنه الناقد الخبير لغوامض الأمور العارف بالنقد(٤٦) .

ويرى أحد الدارسين(٤٧) أن الجهبذة أيضاً كانوا فى الأصل تجاراً مثل الصيارفة وانهم عملوا فى أول الأمر بالصيرفة ثم ارتقى بهم الحال دون سائر الصيارفة ، فأصبحوا كتاب خراج فى أقاليم الدولة المختلفة ، ثم تطور الأمر بهم وزاد رقى حالهم فأصبحوا أصحاب بيوت مالية كبيرة تعمل لحساب الخلفاء والوزراء وكانوا يقومون بدور الوسطاء بين الخلفاء وكبار التجار الذين كان الخلفاء يقترضون المال منهم .

ولقد غلب اليهود على العمل فى هذه الوظيفة فى الولايات الشرقية وكذلك فى الشام ، وفى مصر عمل يعقوب بن كلس قبل أن يتولى الوزارة ، وكذلك آل التستري بالجهبذة(٤٨) ، كما عمل النصراني أيضاً فى هذه الوظيفة .

(٤٤) عطية القوصى ، انبيد فى ظل الحضارة الاسلامية ، صفحات

٧٧ - ٧٨ .

(٤٥) الطعشندى ، صبح الامشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٦ .

(٤٦) Fischel Jews, P. 3, 20.

(٤٧) عطية القوصى ، ارجع السابق ، ص ٧٩ .

(٤٨) Op. Cit., P. 72.

وانشئ في بغداد في عام ٣١٦ هـ / ٨٢٦ م ديوان للجبهة لاستقبال الاموال التي يرسلها جبهة الاقاليم في شرقى وغربى الدولة العباسية وتولى رئاسة هذا الديوان جهيز نصراني يدعى (ابراهيم بن ايوب) ، وتولى بعد ذلك عدد من الجبهة النصارى لهذا الديوان منهم ابراهيم بن يوحنا وزكريا بن يوحنا وسهل بن ناظر واسرائيل بن صالح وغيرهم كثيرين (٤٩) ، كما تولى هذا الديوان بعض اليهود مثل هارون بن عمران ويوسف بن فينحاس الجبهان الشهير (٥٠) .

ولم يظهر هذا الديوان في مصر الا في اواخر الدولة الفاطمية واتضح ذلك خلال الأزمة الاقتصادية التي وقعت في مصر خلال خلافة المستنصر ووزارة اليازورى عام ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م فقام التجار بشراء غلات الفلاحين قبل الحصاد وحضروا الى الديوان وقدموا للجبهذ الاموال المستحقة عليهم وشرطوا أن يحملوا الغلال الى مخازنهم عند الحصاد ، لكن الوزير اليازورى منع ذلك وكتب الى عمال النواحي باستعراض سجلات الجبهة وتحرير ما قام به التجار ومبلغ الغلة التي تم البيع عليها (٥١) .

واستطاع الصيارفة والجبهة بشكل عام الحصول على أموال طائلة من هذا العمل ، فضلا عن الأموال التي حققوها من العمل في التجارة ويؤيد ذلك ما ذكرته المصادر (٥٢) من أن وزير الرشيد يحيى البرمكى قد استكثر ارسال والى خراسان له عشرة ملايين

(٤٩) Fischel, Jews, P. 315.

(٥٠) عطية القوصى ، اليهود في ظل الحضارة الإسلامية ، ص ٨٣ .

(٥١) المقرئى ، افائة الامة بكشف الغمة ، نشرة محمد مصطفى زيادة

وجمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ ، صفحات ٢٠ - ٢١ .

(٥٢) الجبهىارى ، الوزراء والكتب ، ص ٢٢٨ .

درهم فرد عليه الرشيد لو قصصت لدرب من دروب الصيارفة بالكرخ
 وجدت منه اضعاف هذا . وتذكر وثائق الجنيزة (٥٣) أيضا ان أحد
 صيارفة الفسطاط كان لديه ثروة طائلة حصل عليها من عمله
 بالصيرنة الى جانب عمله كقاضي .

كما ارتفع شأن أهل النخبة من خلال عملهم بالجبهة ، اذ ان
 مهمتهم تحولت من كتاب خراج في الاقاليم الى اصحاب بيوت مالية
 للايداع والتسليف نظير الفائدة وساعدهم على ذلك تلك الثقة التي
 اولاهم كبار رجال الدولة والوزراء واثبتتهم على اموالهم ، فضلا
 عن الرغبة الملحة من جانب الوزراء لصيانة اموالهم التي طالما
 تعرضت للمصادرة خاصة خلال خلافة المقتدر بين عامي ٢٩٥ -
 ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ - ٩٢٢ م ، كما ازدادت أهمية الجهازة لازدياد
 أهمية الايداع امانا من المصادرة أو بدلا من تحويلها الى ذهب وجواهر
 ودفعها في القرب (٥٤) .

كذلك كثرت أعداد الجهازة ، وأصبح للوزراء والعمال جهازة
 تد اقتصوا بهم ، فكان لأحد عمال الرشيد جهز خاص يودع عنده
 امواله (٥٥) ، كما كان يقوم بمساعدة الوالى في الشؤون المالية
 للولاية ، أى أن دورهم تعدى الى مساعدة الولاية في تحصيل
 الضرائب ، لذلك تضمنت واجبات جهز كل اقليم في تسليم الوارد
 من الخراج وعمل حساب شهرى وسنوى به (٥٦) حتى توج هذا

Gottien, Med, So., 11, P. 238. (٥٣)

Fischel, Op. Cit., PP. 13 — 14. (٥٤)

(٥٥) الدورى ، تاريخ انعراق الاقتصادى ، ص ١٦٢ .

(٥٦) ابن مباتى ، غوانين الدواوين ، ص ٣٠٤ .

الدور في النهاية الى القيام بالتسليف والايداع مقابل الفائدة ولذلك
اقتصر في الغالب في العمل على اهل الذمة ، لأن الاسلام يحرم
الربا .

صفوة القول ، ان الحرية المتاحة لاهل الذمة في الانتقال بين
أرجاء العالم الاسلامي وظروف المنطقة وقتئذ قد ساعد على ظهور
اهل الذمة وتألقهم في ميدان التجارة وما صاحبها من أعمال الصيرفة
والجبهة اللتين كان لاهل الذمة من يهود ونصارى على وجه
الخصوص دور ملحوظ من خلالهما حتى أصبحت وضعيتهم الاجتماعية
متميزة .

غير المسلمين والحياة الاجتماعية والثقافية

- الرعاية الاجتماعية
- علاقتهم بالمسلمين
- الثروات
- الأعياد
- حرية التعليم
- الترجمة
- الطب

غير المسلمين والحياة الاجتماعية والقانونية

نال الذميون من خلال ما اتيح لهم من حقوق وحريات في المجتمع الاسلامي « حق المواطنة » الذي يمثل الاطار التطبيقي لما جاء في هذا الدين الحنيف من تعاليم سامية تدعو الى بناء مجتمع على اساس من العدالة الاجتماعية متحرر من العبودية والظلم الاجتماعي ، واستند نظام المواطنة في الاسلام على القواعد الاساسية للإسلام من عدل ومساواة (١) .

وشمل حق المواطنة كافة الحريات التي اتاحت لأهل الذمة بداية من عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي طبقه على النصارى واليهود في الحجاز ثم على مجوس هجر عن طريق الجزية

(١) ابراهيم المدوي : نظام المواطنة في الاسلام ، ومنجزاته للحضارة العربية ، من مجموعة البحوث في تاريخ الحضارة الاسلامية التي ألقيت في ندوة للحضارة الاسلامية في فكرى الاستاذ الدكتور أحمد بكرى ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١٦٩ .

التي بمقتضاها أصبح الذميون رعايا من أبناء الدولة الإسلامية
 يتمتعون بحقوق المواطنة في ظل الأمان والضمان والعهد (٢) ، مما
 أتاح لأولئك الرعايا ممارسة مختلف أوجه النشاط في المجتمع
 الإسلامي والمشاركة في الحياة العامة باعتبارهم أعضاء مؤثرين في
 المجتمع فاستخدموا في الإدارة وشاركوا في الحياة الاقتصادية .
 وبديهي أن ينعكس كل ذلك على مظاهر الحياة الاجتماعية ، لأنهم
 لم يعيشوا بمعزل عن حركة المجتمع الإسلامي ، لكنهم كونوا جزءا
 من هذا الإطار العام ، فتمثلتهم الدولة الإسلامية بالرعاية
 الاجتماعية ، كما نشأت بينهم وبين المسلمين كثير من العلاقات
 الاجتماعية : متممين بوضعية اجتماعية اتاحت لهم تكوين الثروات
 ولديهم الحرية في الاحتفال بأعيادهم الخاصة . وبذلك استطاع
 الذميون أن يمارسوا مظاهر الحياة الاجتماعية بحرية تامة في دار
 الإسلام .

ومن بين الطوائف التي انتشرت في الدولة الإسلامية بأعداد
 كبيرة نصيبيا اليهود حيث بلغ عددهم في العراق حتى نهاية القرن
 السادس الهجري حوالي ستماية ألف يهودي (٣) . وكان بغداد إذ
 ذاك نحو ألف يهودي ، كما أقاموا في مدن أخرى بالعراق ففي
 الموصل سبعة آلاف وفي جزيرة ابن عمر أربعة آلاف (٤) ، كما كان
 بالكوفة سبعة آلاف والبصرة ألفان (٥) وفي خراسان كان يوجد يهود
 كثيرون ونصارى قليلون (٦) ، أما في مصر فشكل اليهود في مدينة
 القسطنطينة عددا كبيرا بالنسبة لبقية مدن مصر حيث تركزت الجالية

(٢) نفس المرجع : صفحات ١٧١ - ١٧٢ .

(٣) مقر ، الحاضرة الإسلامية ، ج ١ ، ص ٨٣ .

(٤) نفسه : ص ٨٢ .

(٥) القطنى : إخبار العلماء بأخبار الحكيام ، القاهرة ١٨٠٢ ، ص ١٩٤ .

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٣٢٣ .

اليهودية ، وكان فى القاهرة سبعة آلاف يهودى وفى الاسكندرية
ثلاثة آلاف وبالمدين التجارية فى الصعيد ستمائة (٧) .

كما بلغ عدد النصارى فى بغداد ما بين أربعين وخمسين ألف
نصرانى(٨) بدليل انتشار الأديرة والكنائس النصرانية فى أنحاء
المدينة ، كما كان النصارى كثيرى العدد فى مدينتى الرها وتكريت
حيث تجمع سائر فرق النصارى وبها البيع والأديرة(٩) ، وفى مصر
شكل النصارى عدداً لا يائس به من أهل مصر ، فكان دافعوا الجزية
فى القرن الثانى الهجرى خمسة ملايين وهذا يدل على أنه كان بمصر
عدد كبير من الأقباط(١٠) وحسبنا دليلاً على ذلك انتشار الكنائس
والأديرة التى ذكرها أبو صالح الأرمنى فى كتابه كنائس وأديرة مصر
والمقريزى أيضاً فى خططه .

أما المجوس ، فكانوا كثيرين بالعراق ، خاصة فى جنوب
فارس ، كذلك انتشر الصابئة بأعداد قليلة بخران والرقعة وديار
مضر ، لكنهم انقرضوا حتى أن عددهم مع مطلع القرن الخامس
الهجرى لم يتجاوز أربعين نفساً(١١) ، ويبدو أنهم تمتعوا أيضاً بحماية
الخلافة فقد أصدر الخليفة القاهر ، فى منتصف القرن الرابع الهجرى
أمراً بصيانتهم وحراستهم .

ولم يكن أهل الذمة يعيشون بمعزل عن المجتمع الإسلامى
داخل جالياتهم ، فلم يوجد فى المدن الإسلامية أحياء خاصة لليهود

(٧) نفس المصدر .

(٨) متر : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

(٩) ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ١٥٦ .

(١٠) متر : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٨٢ .

(١١) نفسه : ص ٨٦ .

والنصارى بحيث لا يتعدونها وإن آثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين (١٢) ، لكنهم ساكنوا المسلمين وحظوا باحترامهم ماداموا محافظين على العهود ولم ينقضوها ، ومن الثابت أن العرب مع بداية الفتوحات قد استقروا في البلاد المفتوحة فلما فتحت دمشق لحق كثير من أهلها بهرقل في مدينة أنطاكية فكثر فضول منازل دمشق فنزلها المسلمون (١٣) ، وعندما ولى هرثة بن عرفة على الموصل في خلافة عمر بن الخطاب كان بالمدينة بيع للنصارى ومنازل قليلة ومحلة لليهود فحصرها وأنزل العرب بمنازل لهم (١٤) ، وفي إقليم ما وراء النهر ، دخل قتيبة بن مسلم سمرقند وأسكن المسلمين مع أهلها (١٥) .

ومع اختطاط المسلمين للأمصار الإسلامية في أرجاء الدولة الإسلامية كافة ، لم يشأ العرب أن يجعلوا أهل الذمة جماعة منبوذة داخل المجتمع الإسلامي فوجدت منهم أعداد كبيرة في هذه المدن كما أسلفنا كما انتشرت بها كنائسهم وبيعتهم ، لأنه قد أتيح لهم السكنى في أمصار المسلمين وفي أسواقهم يبيعون ويشتررون (١٦) .

ويذكر المؤرخون (١٧) أن الخليفة الحاكم الفاطمي قد أفرد لليهود حارة زويلة وأمرهم أن يسكنوها ولا يخالطوا المسلمين في حاراتهم ، ورواية أخرى تقول أنه أسكنهم في حارة أسبها الجودرية (١٨) ،

(١٢) نفسه . ج ١ ، ص ٩٣ .

(١٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٢٩ ، وقيل أيضا أنهم مولحوا على

انصاف منازلهم وكنائسهم .

(١٤) نفسه : ص ٣٢٧ .

(١٥) نفسه : ص ٤١١ .

(١٦) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٣٧ .

(١٧) ابن أبي عمير ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٥٩ .

(١٨) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

وإذا حاز لنا تصديق هذه الروايات فمرد ذلك أننا لا نستطيع أن نتخذ الحاكم بأمر الله مثلاً يحتذى لجميع خلفاء المسلمين بل هو يعد استثناء ، كما سبق أن ذكرنا ، في حين أن اليهود عاشوا بعيدين عن اضطهاد الحاكم .

الرعاية الاجتماعية :

كما اهتم حكام الدولة الاسلامية بأحوال أهل الذمة وشملوهم بالرعاية التامة ، حتى يمكن أن يقال أن الذميين تمتعوا بالمظلة الاجتماعية من قبل الدولة الاسلامية بتطبيق التكافل الاجتماعي على طوائفهم مثل المسلمين ، وتجلى ذلك منذ بداية الفتوحات في عهود الأمان ومنها ما عاهد به خالد بن الوليد أهل الحيرة في عام ١٢ هـ / ٦٣٣ م على أن أى شيخ غير قادر على العمل أو أصابه المرض ، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الاسلام (١٩) .

ونتبين مما قام به الخليفة عمر بن الخطاب تجاه أهل الذمة رغبته الملحة في أن يشملهم بعنقه ورعايته فتذكر المصادر (٢٠) أن عمر أجرى الصدقة على شيخ يهودى مكثوف البصر وقال : (ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخله عند الهرم) وأعطاه شيئاً من منزله ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال وقال له : انظر هذا وضرياءه ! (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) والفقراء هم المسلمون وهذا من مساكين أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن أمثاله ، كما مر

(١٩) أبو يوسف : الخراج ، صفحات ١٥٥ - ١٥٦ .

(٢٠) نفسبه ، ص ١٣٦ .

عمر فى أرض دمشق يقوم مجنومين من النصارى ، فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم الحقوق بانتظام(٢١) .

كما أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بالرفق بأهل الذمة ، فإذا كبر الرجل منهم وليس له مال تنفق عليه الدولة ، فإذا كان له حميم ينفق عليه حميمه ، كما لو كان له عبد فكبرت سنه ، فلا بد من الإنفاق عليه حتى يموت أو يعتق ، وهذا معناه أن الدولة الإسلامية مع عمر قد كفلت الإنفاق على فقراء أهل الذمة ماداموا لا يوجد لديهم من ينفق عليهم ولذلك كان كتاب عمر الى عامله على الكوفة : (أن تو أهل الذمة) (٢٢) ، كما كتب الى عامله على الكوفة أيضا بتوزيع ما فضل من أعطية الجند على أهل الذمة بعد أن وزع على المسلمين غير القادرين جزءا من هذا المال(٢٣) وانعكست هذه المعاملة الطيبة على تصرفات الرعية تجاه النُميين حتى حرص حرس عمر على دفع الظلم عن أهل الذمة(٢٤) .

ويبدو أن خلفاء بنى العباس كانوا حريصين أيضا على رعاية أهل الذمة اجتماعيا ، حتى سار على نهجهم أمراء بنى بوية ، فقد أذن عضد الدولة البويهى لوزيره النصرانى نصر بن هارون بإطلاق الأموال لفقراء أهل الذمة(٢٥) .

(٢١) البلاذرى : فتوح أنبلدان ، ص ١٢٥ .

(٢٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٧ .

(٢٣) نفسه .

(٢٤) نفسه ، ص ١٦٤ .

(٢٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٣٤ .

علاقتهم بالمسلمين :

وعلى صعيد العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة ، فقد نشأت وتحددت من خلال بعض النصوص القرآنية وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » (٢٦) وقال سبحانه أيضا : « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتوهن أجورهن » (٢٧) .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام مثلا أعلى للمسلمين في معاملة الأديان الأخرى ، فقد روى أنه كان يحضر ولائهم ويعود مرضاهم ويشيع جنازتهم ويؤمرهم ويكرهم (٢٨) ، وروى أنه مرت جنازة أمام الرسول فقام لها تعظيما ، فقل له : انها جنازة يهودي ، فقال : اليس انسانا ، كما روى أنه لما زاره وفد نصارى نجران فرش لهم عبايته وأجلسهم عليها ، كذلك أوصى الجار المسلم أن يحسن الى جاره غير المسلم (٢٩) ، وأجاز التعامل معهم في البيع والشراء ومشاركتهم في التجارة على أن يكون البيع والشراء بيد المسلم (٣٠) .

وبذلك وضع للمسلمين أسلوب التعامل مع غير المسلمين من خلال حسن المعاملة والمجاملة في المناسبات المختلفة بحضور

(٢٦) سورة المائدة : آية ٨ .

(٢٧) سورة المائدة : آية ٥ .

(٢٨) ابن القيم الجوزية . أحكام أهل الذمة ، صفحات ٢٠١ - ٢٠٣ .

(٢٩) نفسه .

(٣٠) ابن القيم الجوزية ، المصبر السليق ، ج ٢ ، صفحات ٧٧٧ - ٧٧٨ .

أفراحهم وزيارتهم وعبادة مرضاهم وشهود جنازاتهم ومشاركتهم فى الطعام والزواج من الذميات ، ومن مظاهر احترام أهل الذمة فى المجتمع الإسلامى ما ذكره المؤرخون (٣١) من قيام أحد قضاة بغداد واقفا لأحد الوزراء النصارى وهو عبدون بن صاعد النصرانى ، فلما أنكر الشهود ومن حضره ذلك ، قال القاضي : هذا الرجل يقضى حوائج المسلمين وهو سفير بيننا وبين خليفتنا وهذا من البر .

كما اختلف النصارى بالمسلمين عن طريق اتخاذ الخلفاء جوارى نصرانيات مراعين فى ذلك التقاليد الدينية وقد تكون الجارية تلبس الصليب والزمار ، فكان للخليفة المهدى جارية نصرانية تعلق فى عنقها صليبا من ذهب (٣٢) .

وفى مصر ومع ازدياد أعداد الداخلين فى الإسلام ، فقد كان القبط ومع أنهم أقلية لكنها كانت أقلية كبيرة العدد حيث وجدت جاليات كبيرة فى مدينة الفسطاط والقطائع وكان أعيان هذه الطائفة القبطية لهم مكانتهم الاجتماعية فى البلاد ، وتشير أوراق البردى العربية الى ظاهرة الزواج بالذميات ، وهذه الظاهرة التى شاعت فى العصر الطولونى ومنها زواج بونة ابنة حليص من زوجها يزيد ابن تاسم (٣٣) .

كذلك شارك أهل الذمة فى أحداث الحياة العامة ، فحين اشتد المرض بأحمد بن طولون أمر الرعية بالدعاء له ، فخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بأناجيلهم ، بينما خرج صبيان المكاتب بالألواح

(٣١) ياقوت : معجم الأدباء ، القاهرة ١٩٦٥ ، ج ٦ ، ص ٣٦ .

(٣٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٢٠ ، روميل بابو اسحق ،

أحوال النصارى ، ص ٦٠ .

(٣٣) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء الأول ، وثيقة رقم ٤٨ .

على رعوسهم وخرج جميع العلماء والصلحاء وهم يدعون الله تعالى له بالعافية والشفاء واستمروا على ذلك عدة أيام حتى مات (٣٤) .

وفى إفريقية فى عصر الولاة شارك النصارى فى استقبال الوالى الجديد الفضل بن روح بن حاتم عام ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م ، فنصب له القباب من مسجد أم الأمير الى دار الامارة ، كما نصب له قرية ريحان فى طريقه وعليها طومار كتب فيه بخط غليظ : « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ، فسأل الفضل من فعل هذا ؟ قالوا : قسطاس النصرائى ، فاستحسنه (٣٥) .

كذلك كان أهل الذمة يعاملون فى مارستانات بغداد معاملة المسلمين ، فعندما وقع وباء فى بغداد فى أوائل القرن الرابع فوقع الوزير على بن عيسى الى سنان بن ثابت طبيب الخليفة القاهر وهو الذى كان يتولى المعالجة واعطاء الأدوية للمرضى خارج بغداد بأن يعالج الذميين مثل المسلمين (٣٦) .

الثروات :

والواضح ان أهل الذمة استطاعوا من خلال ممارستهم لواجه النشاط المختلفة فى المجتمع الاسلامى أن يملكو الثروات ويقتنوا الضياع والأراضى ، فكان المسلمون والنصارى فى بغداد فى تملك الرقيق والاكثار من العبيد سواء ، كما جمع نصارى بغداد الثروات الضخمة وصرفوا الأموال وسكنوا القصور ، وكان الطبيب بختشيو

(٣٤) البلوى : سيرة أحمد بن طولون : صفحات ٣٢٠ - ٣٣١ .

(٣٥) الرقيق القبروائى ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ١٨٤ .

(٣٦) العقبى ، أخبار الطباء ، ص ١٢٢ .

يضاهى الخليفة المتوكل فى اللباس وعدد الجوارى والعبيد وعندما دعا الخليفة الى قصره أحضر كل ما فى بغداد من الخيش ورطبه بالماء ليصير كل مكان يمر فيه الخليفة نديا ، وكان من عادته أن يجلس على غرفة من الابنوس ويخرج من قصره وبين يديه ألف من الرجال ، كما يقال عنه ، انه كان يصرف كل ليلة خمسمائة دينار على الشموع والزيت والبخور (٣٧) ، وهذا الامر مبالغ فيه لكنه يلقى الضوء على مدى الثراء الذى تمتع به الذميون آنذاك .

وفى مصر أيام الدولة الطولونية ، يبدو أن حالة اليهود المادية كانت طيبة ، بدليل أنهم اشتروا كنيسة الاقباط بالفسطاط من البطرك ميخائيل (٣٨) ، كما استطاع يعقوب بن كلس الذى أتى الى مصر أيام كافور الاخشيد من خلال عمله كوكيل للتجار أن يشتري ضياعا من ريف مصر ، كما أتاح عمله لدى المعز الاشراف على جميع الاعمال كما ذكرنا أنه قد أصبح له اقطاعات من قبل الخلافة بمصر والشام مبلغها ثلثمائة ألف دينار واتسعت دائرته ووهب خمسمائة فلام (٣٩) كما استفاد أبو سمد ابراهيم بن سهل التستري من تدخله فى الحكم واشرافه على ديوان ام المستنصر من جميع ثروة هائلة فكان على سقف داره ثلثمائة جرة من الفضة ، كما كان لأخيه أبى نصر مائتا ألف دينار (٤٠) .

وهذه الثروات لم يقتصر امتلاكها على اليهود الذين وصلوا الى أعلى مناصب الدولة كما سبق ، ولم تكن أيضا قاصرة على

(٣٧) ابن أبى اسبيعة . طبقات الاطباء ، ج ٢ ، ص ٤٣ .

(٣٨) Mann, the Jews, PP. 14 — 15.

(٣٩) القرينى : الخط ، ج ٢ ، صفحات ٥ — ٦ .

Fischel. Jews P. 48

(٤٠) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٦٩ . Ibid. P. 77.

الرجال ، فتشير وثائق الجنيزة الى امتلاك المرأة اليهودية للعقارات لدرجة كبيرة تستلقت النظر(٤١) .

وما يدل على ثراء أقباط مصر ، ما أوقف على الكنائس من ضياع ومزارع وثياسر وخانات وحوانيت ونخل وبساتين من شجر مثمر(٤٢) . كذلك انعكس ثراء النصارى فى عهد الخليفة الحافظ فيما تفاخروا به من ركوب البغلات المسومة بالسروج المحلاة بالجم الثقيلة(٤٣) .

ويسـوـقـنا هذا الى حقيقة لابد من تأكيدها وهى أن أهل الذمة قد تصدروا السلم الاجتماعى الى جانب وجود شرائح منهم فى الطبقات المختلفة ، بمعنى أنهم لم يحصرُوا فى طبقة بعينها باعتبارهم محكومين ، بل على العكس من ذلك ، لم يخلق دونهم الهيكل الاجتماعى ، لأنهم شاركوا فى الحياة العامة بمختلف أوجهها فكان من البديهي أن تتوزع شرائح أهل الذمة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة ، وفى الطبقة العليا اندرج فيها من النخب من ولوا الوزارة ومن عملوا فى الجهاز الإدارى فى الدولة الإسلامية جنباً الى جنب الأمراء والولاة والحكام الذين يشكلون هذه الطبقة من المسلمين ، أما الطبقة الوسطى فيندرج فيها الأطباء والمهندسون والعاملون فى التجارة والصيرفة والجهدة ، والطبقة الدنيا فبديهي أن يندرج فيها الأساكنة والخياطون والصباغون وغيرها من الحرف التى تنتمى الى هذه الطبقة فى الهيكل الاجتماعى العام ، وحسبنا أن المسلمين قد راعوا هذا الاختلاف فى الانتهاء الطبقي للذميين منذ البداية عند تقديرهم للجزية كما سبق أن أسلفنا .

Ashtor, Histoire du Prix et des Salaires, Paris (٤١)
1969. PP. 182, 185, 199.

(٤٢) يحيى بن سعيد : صفحات ٢٢٩ ، ٢٣٢ .

(٤٣) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠٦ .

الأعياد :

ومنها يتعلق بالأعياد ، فقد مارس أهل الذمة الحرية التامة فى الاحتفال بها ، ومن الثابت أن عهود الأمان المبكرة قد خولت لهم حرية الاحتفال ومنها عهد أبى عبيدة بن الجراح مع أهل الشام ، فقالوا له : (اجعل لنا يوما فى السنة نخرج فيه صلباننا بلا رايات ، وهو يوم عيدنا الأكبر ، فاجابهم الى ذلك) ، كما أكد الخليفة عمر ابن الخطاب هذا الأمر (٤٤) ، وكذلك ما عاهد به خالد بن الوليد أهل الحيرة ، فأطلق لهم الحرية أيضا فى اخراج النواقيس وضربها فى يوم عيدهم (٤٥) .

واستمر أهل الذمة يحتفلون بأعيادهم الدينية بحرية تامة ، حتى أن بعض المؤرخين أفردوا لها فصولا مما يؤكد أنها كانت تشكل جزءا له أهميته فى المجتمع الاسلامى ، لا سيما أعياد اليهود والنصارى باعتبارهم يمثلون الغالبية العظمى من أهل الذمة فى هذا المجتمع .

أما أعياد اليهود فقد قسمها المؤرخون الى قسمين : أعياد شرعية وأعياد محدثة ، والأعياد الشرعية عددها خمسة وهى ما نطقت به التوراة ومنها :

« عيد رأس السنة » : ويسمونه عيد « رأس هيشا » أى عيد رأس الشهر ويحل فى شهر تشرى (٤٦) ، كما يعتبر هذا العيد أيضا عيد عتق وحرية عند اليهود ويسمى عيد البشارة بعتق الأرقاء (٤٧) .

(٤٤) أبو يوسف ، الفراج ، ص ١٤٩ .

(٤٥) نفسه : ص ١٥٤ .

(٤٦) الطتشندى : صبح ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

(٤٧) القرىزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ .

والعيد الثاني : عيد صوماريا ويسمونه « الكبور » وهو يوم « الاستغفار » وجعل الريانيون مدة الصوم خمسا وعشرين ساعة ، تبدأ قبل غروب شمس التاسع من شهر تشرى وتنتهى بعد مضي ساعة من غروبها فى اليوم العاشر . وربما سموه العاشر ، بينما جعله القراعون أربعاً وعشرين ساعة تبدأ من غروب شمس التاسع شهر تشرى وتنتهى بغروبها فى اليوم التالي (٤٨) . ومن لم يصم منهم هذا الصوم قتل شرعاً ، ويعتقدون أن الله يغفر لهم ذنوبهم فيه ماعدا الزنا بالمحصنات وظلم الرجل لأخيه وانكار ربوبية الله تعالى .

عيد المظلة : وكان الاحتفال به يبدأ فى الخامس عشر من شهر تشرى ، وهو سبعة أيام يعيدون فى أولها ، وفى اليوم الثانى عيد الاعتكاف ، وفى ذلك العيد كان اليهود يجلسون تحت ظلال سعف النخل الأخضر وأغصان الزيتون ونحوها من الأشجار التى لا يتناثر ورقها على الأرض تذكراً للغمام الذى أظلمهم به الله تعالى فى التيه ، ويصوم فيه القراعون فى اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر ويعرف « بصوم كوليا » أنها عند الريانيين فكان الصوم فى ثالثه (٤٩) .

عيد الفطير : ويسمونه « الفصح » ويكون فى الخامس عشر من شهر نيسان وهو سبعة أيام ، يأكلون فيها الفطير وهى الأيام التى تخلصوا فيها من فرعون بعد أن أفرقه الله ، ولا يصح أن يبدأ هذا العيد عند الريانيين يوم الاثنين أو الأربعاء أو الجمعة وهو ما لم يتقيد به القراعون (٥٠) ، « يعتبر هذا العيد عند اليهود من أعياد

(٤٨) الطلغندى ، المصدر السابق .

(٤٩) القرىزى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ .

(٥٠) نفسه ، ص ٤٧٤ .

التضحية ومواسم الحج غفيه يحج القراعون والريانون الى بيت المقدس ويضحون على الصخرة المقدسة (٥١) .

عيد الأسابيع ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أيام ، وهي عندهم الأسابيع التي أنزل الله تعالى فيها . على بنى اسرائيل الفرائض متضمنة الوصايا العشر المنسوبة الى موسى عليه السلام . وهذا العيد يحل في شهر سيوان من شهور اليهود . وفيه يأكلون القطائف ويتفننون في عملها ويأكلونها بدلا من المن الذي أنزله الله عليهم في هذا اليوم ، ويسمى هذا العيد أيضا « عشترا » بالعبرية ومعناه الاجتماع ولا يجد هذا العيد عند الريانيين أيام الثلاثاء والخميس والسبت . بينما لم يتقيد القراعون بذلك عند احتفالهم بهذا العيد (٥٢) .

أما الأعياد المحدثة زيادة على الأعياد الشرعية ، عيدان « عيد الفوز » و « عيد الحنكة » .

عيد الفوز : يبدأ في الثالث عشر من آذار الى الخامس عشر ، وسبب اتخاذ اليهود لهذا العيد ، انه بعد تدمير بيت المقدس على يد بخت نصر الذي أجلاهم الى عراق العجم في مدينة تسمى خي فيما عرف بالسبي البابلي ، فلما ملك أردشير ، علم بأن لأحد أهباء اليهود ويسمى مردوخاي ابنة عم رائعة الجمال ، فتزوجها وقرب ابن معها فحسده هيمون وزير الملك وعمل على التخلص منه ، هو وجميع طائفة اليهود في المملكة ورتب هذا الأمر مع نواب الملك على أن يقتل كل أحد منهم من يعلمه من اليهود وحدد لذلك يوما وهو

(٥١) الطقشندي ، المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٢٦٨ .

(٥٢) نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ ، القريري ، الخط ، ج ٢ ، ص ٤٧٤ .

النصف من آذار ، لكن مردوخاى علم بهذا الامر عن طريق جواسيسه فنقل الامر الى ابنة عمه التى قامت هى الأخرى بإبلاغ الملك ، فأمر بقتل هيمون وأتاح لليهود قتل شيمته من الثالث عشر الى الخامس عشر من آذار ولذلك إتخذ اليهود من هذه المناسبة عيداً اتسم باللهو والخلاعة (٥٣) .

عيد الحنكة : وهو ثمانية أيام ، وسبب اتخاذهم لهذا العيد يرجع الى ما تعرض اليه اليهود عام ١٦٥ ق . م . تحت حكم البطالمة فى بلاد الشام من أرغابهم على عبادة الأصنام ، لكن اليهود استطاعوا من خلال قيام كاهنهم الأكبر يعاونه أبناؤه الثمانية بحركة مضادة استردوا بعدها الهيكل من جيوش البطالمة فى الخامس والعشرين من كسلو نظف فيه الهيكل من التماثيل الاغريقية ، لكنهم لم يجدوا الزيت لاضاءة الهيكل ، فوزموا الوقود على عدد من المصابيح التى يوقدونها على أبواب دورهم كل ليلة حتى تنتهى الثمانى ليالى ولذلك يعنى اسم الحنكة المرتبط بهذا العيد بمعنى التنظيف (٥٤) .

وفىها يتعلق بأعياد النصارى فهى كثيرة وهى أربعة عشر عيداً وتنقسم الى قسمين : أعياد كبار وعددها سبعة أعياد وأعياد صغار وعددها سبعة أيضاً (٥٥) .

وأول الأعياد الكبار هو عيد البشنةارة أى بشارة غبريال

(٥٣) نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٢٨ .

(٥٤) الميرزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ .

(٥٥) الطنشدى ، المصدر السابق ، ج ٢ ، صفحات ٤١٥ — ٤١٦ .

الميرزى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ٢٦٣ — ٢٦٥ .

للسيدة العذراء بميلاد عيسى عليه السلام . وموعده فى التاسع والعشرين من برمهات من شهور القبط سنويا .

والعيد الثانى هو : « عيد الزيتونة » أو « عيد الشعانين » أى التسبيح وهو فى سابع أحد من صومهم فى ذكرى دخول المسيح الى القدس ثم دخوله راكبا لليعفور (وهو الحمار) والناس يسبحون بين يديه وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وعادتهم فى هذا اليوم أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة .

والعيد الثالث هو : « عيد الفصح » وهو بمثابة العيد الكبير عندهم بحل فى يوم الفطر من صومهم الاكبر ، ويقولون ان المسيح قام فى هذا اليوم بعد صلبه ودخل على تلاميذه وسلم عليهم وأكل معهم وأوصاهم ثم صعد الى السماء بعد أربعين يوما .

والعيد الرابع هو : « عيد خميس الأربعين » ويذكر النصارى ان السيد المسيح عليه السلام بعد أربعين يوما من القيام خرج ومعه تلاميذه ، حيث باركهم ثم صعد الى السماء بعد أن تم ثلاثا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ورجع تلاميذه الى بيت المقدس بعد وعده لهم بظهور أمرهم .

والعيد الخامس هو : « عيد الخميس » الذى كان يطلق عليه أيضا « عيد العنصرة » ويحل فى السادس والعشرين من شهر بشنس بعد خمسين يوما من القيام ، ويعتقد النصارى أن روح القدس حلت فى التلاميذ فى هذا اليوم ، وتفرقت عليهم اللسنة الناس ، فتكلموا بجميع اللسنة ، وذهب كل واحد منهم الى البلاد التى يعرف لفتها يدعون الناس الى دين المسيح .

أما العيد السادس فهو « عيد الميلاد » ويحل فى اليوم التاسع والعشرين من كيهك ، وهذا اليوم يوافق عندهم ليلة ميلاد المسيح

ويثولون انه ولد يوم الاثنين فيجعلونه عشية الأحد ، وفيه توعد المصاييح بالكنايس . ويزيئونها .

والعيد السابع هو : « عيد الغطاس » ويتم الاحتفال بهذا العيد في الحادى عشر من طوبة في مناسبة تعميد السيد المسيح عليه السلام على يد يوحنا المعمدان يحيى بن زكريا عليه السلام في مياه نهر الأردن وعادة النصارى في هذا اليوم غمس أولادهم في الماء رغم شدة البرد .

أما الأعياد الصغار فهي سبعة أيضا منها : « عيد الختان » ويحل في سادس بؤنة من شهورهم ، في ذكر ختان المسيح عليه السلام وهو اليوم الثامن من الميلاد .

والعيد الثانى هو : « عيد الأربعين » في الثامن من أمشير في ذكرى مباركة الكاهن سمعان للسيد المسيح عليه السلام في الهيكل بعد أربعين يوما من مولده .

والعيد الثالث : هو « خميس العهد » ويحل موعده قبيل الفصح بثلاثة أيام ، عانتهم في هذا اليوم أن يقوم البطريك بغسل أرجل الحاضرين من النصارى في ذكرى غسل المسيح لأرجل حواريه ليعلمهم التواضع وفيه أخذ عليهم العهد أن لا يفترقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض ، وعامة النصارى يسمون هذا اليوم خميس العدس ، لأنهم يطبخون فيه العدس على الوان .

والعيد الرابع هو : « سبت النور » ويعتقد النصارى أن النور يظهر على مقبرة المسيح في هذا اليوم فتشتعل منه مصاييح كنيسة القيامة بالقدس ، ويحل هذا اليوم قبل الفصح بيوم .

أما العيد الخامس فهو : « عيد حد الحدود » وهو بعد عيد الفصح بثمانية أيام في أول أحد بعد الفطر ، وفيه يقومون بتجديد أثاث البيوت ، كما تنشط فيه المعاملات الدنيوية لديهم .

والعيد السادس : « عيد التجلى » ويحل مواعده فى الثالث من شهر مسرى ويذكرون أن المسيح عليه السلام تجلى على تلاميذه فى هذا اليوم بعد أن رفع ، وتمنوا عليه أن يحضر لهم (إيليا وموسى) فأحضرهما لهم بمصلى بيت المقدس ثم صعد الى السماء وصعدا معه .

والعيد السابع هو : « عيد الصليب » فى السابع عشر من شهر توت يختلفون فيه بذكرى ظهور صليب الصلبوت ويذكر أنه بعد أن تنصر قسطنطين خرجت أمه هيلانة الى الشام فبنت الكنائس وسارت الى بيت المقدس وطلبت الخشبة التى اعتقد النصارى أن المسيح صلب عليها فحملت اليها فغشتها بالذهب واتخذت ذلك اليوم عيداً (٥٦) .

وللنصارى أعياد أخرى ، غير تلك الأعياد السابقة وقد بلغت حسب تقدير القلقشندي مائة وثمانية وسبعين عيداً وموسماً موزعة على شهور السنة (٥٧) . وهى عيد النيروز وهو أول السنة القبطية ، وهو أول يوم من شهر توت (٥٨) . كذلك عيد الشهيد ويحل فى اليوم الثامن من شهر بشنس ، ويقولون أن النيل بنصر لا يزيد فى كل سنة حتى يلقى النصارى فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى (٥٩) .

ومما يدل على قوة الروابط الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة ويشير أيضاً الى تسامح المسلمين أنهم لم يتركوا الذميين فقط

(٥٦) القلقشندي ، صبح ، ج ٢ ، صفحات ٤١٨ — ٤١٩ .

(٥٧) نفسه : صفحات ٤٢٠ — ٤٢٥ .

(٥٨) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، من ٢٦٧ .

(٥٩) نفسه : من ٦٩ .

يحتفلون بأعيادهم بحرية تامة ، بل شاركهم المسلمون الاحتفال بها ، وكان يبلغ الأمر فى بعض الأحيان قيام بعض الخلفاء بحضرة مواكبهم وأعيادهم والأمر بصيانتهم ، وفى حالة انقطاع المطر كانت الدولة تأمر بعمل مواكب يسير فيها النصارى وعلى رأسهم الأسقف واليهود ومعهم النافخون فى الأبواق (٦٠) .

وفى القرن الرابع الهجرى ، كان نصارى بيت المقدس يخرجون فى عيد الزيتون (عيد الشعانين) ويحملون شجرة من شجر الزيتون من الكنيسة ويشقون بها شوارع المدينة بالقراءة والصلوات حاملين الصليب مشهورا ويركب والى البلد فى جميع مواكبهم وينب عنهم (٦١) .

ونفس اليوم كان يطلق عليه فى بغداد يوم السباسب ، وكان المسلمون يشاركون النصارى فى الاحتفال به ، وكانت الوصائف تظهرن فى قصر الخلافة ، متزينات فى ثياب غالية ، وفى أعناقهن صلبان من الذهب وبأيديهن قلوب النخل وأغصان الزيتون (٦٢) . وفى يوم عيد الفصح ببغداد كان المسلمون والنصارى يقصدون دير سهالو شرقى بغداد ، بباب الشماسية ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو الا حضره (٦٣) . كما كان يحتفل بعيد الصليب ويشارك المسلمون النصارى وكان هذا اليوم يعد عطلة عامة (٦٤) . وكانت

(٦٠) جتر ، الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٨٨ .

(٦١) يحيى بن سعيد ، ص ١١٨ .

(٦٢) الاصمهانى ، الأغنى ، تحقيق عبد الكريم ابراهيم الغريلاوى ، القاهرة

١٩٧٢ ، ج ١٩ ، ص ١٢٨ .

(٦٣) الشلبشى ، الديارات ، حققه وعلق عليه كوركيس عواد ، دمشق

١٩٥١ ، ص ٩ .

(٦٤) متر ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

الاحتفالات التي تتم في الأديرة النصرانية تظهر أيضا هذه المشاركة ، ففي دير الثعالب الذي يقع في الجانب الغربي من بغداد ، كان لا يتخلف عن عيده أحد من النصارى والمسلمين (٦٥) ، وفي يوم عيد القديسة أشمونى والذي كان يعمل بدير أشمونى بقطريل ، غربي دجلة ، وكان هذا العيد من الأعياد العظيمة ببغداد ، يجتمع أهلها اليه كاجتماعهم الى بعض أعيادهم ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو الا خرج اليه (٦٦) ، وفي عيد بريارة ، كان المسلمون يعرفونه ويقدرون به الفستول ويعرفون وقت الأمطار (٦٧) ، وفي يوم الأحد الرابع من الصوم المسيحى ، كان يتم الاحتفال بعيد دير درمالس ، حيث يجتمع نصارى بغداد ويقيم فيه الناس بالأيام (٦٨) . وكانت العادة في الاحتفال بعيد النيروز تبادل الهدايا ، وكان الخليفة في بغداد يفرق على الناس أشياء منها صور مصنوعة من عنبر ومنها ورد أحمر (٦٩) .

ولم يكن الحال يختلف في مصر من حيث مشاركة المسلمين في أعياد أهل الذمة ، بل نستطيع أن نذهب في هذا الجانب ، حتى نلقى الضوء على هذه الاحتفالات ومدى تسامح المسلمين مع الذميين في الاحتفال بها في دار الاسلام ، ففي عصر الولاة ظل الاقباط يحتفلون بأعيادهم الدينية ، ولم نسمع عن محاولة من قبل الولاة للحد من حرية الاقباط في هذا الشأن ، لكنهم لم يشتركوا فيها ، على عكس ما حدث بعد ذلك في عصر الطولونيين والاخشيديين الذين كانوا يشتركون في هذه الاحتفالات بهدف التقرب من الشعب

(٦٥) الشاشنى ، المصدر السابق ، ص ١٦ .

(٦٦) نفسه : ص ٤٩ .

(٦٧) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٢٢ .

(٦٨) الشاشنى ، المصدر السابق ، ص ٣ .

(٦٩) نفسه ، ص ٢٢ .

لمعاونتهم على الاستقلال عن الخلافة العباسية ، أما الولاة فلم يحرصوا على ذلك لأنهم كانوا تابعين لدار الخلافة (٧٠) .

لذلك أقبل المصريون المسلمون على الاحتفال بأعياد النصارى، كما شارك فيها أيضا محمد بن طغج الاخشيدي ، وشهد احتفالات عيد الغطاس عام ٣٣٠ هـ/ ٩٤١ م حيث كان في داره المعروفة بالمختارة في جزيرة بالنيل وقد أمر فأسرج من جانب النيل بالجزيرة ومن جانب الفسطاط الف مشعل ، غير ما أوقده أهل مصر من المشاعل والشمع من مسلمين ونصارى الذين شاركوا في هذا الاحتفال ، فمنهم من كان في الزوارق ومنهم من كان في الدور الدانية أو على الشطوط يظهرون المأكل والمشرب والملابس والملاهي والعزف الشيء الكثير (٧١) .

ونفس الشيء يقال عن الخلافة الفاطمية التي اتخذت من القاهرة مركزا لدولة كبرى ، أرادت ان تؤكد هذا الاستقلال عن خلافة بغداد بشيئى الطرق ، لأنها كانت تهدف الى حكم العالم الاسلامى فبديهي أن يكون الخلفاء الفاطميون حريصين على التقرب الى الشعب المصرى بكل طوائفه ولذا جاءت سياستهم مع أهل النمة أكثر تسامحا ، أضف الى ذلك ما وصف به الفاطميون من ميل للترف والرغبة في اظهاره ، فكانت اعيادهم بوجه عام غاية في البهاء والسرف ومنها اعياد الزميين ، فيصف المؤرخون (٧٢) يوم الاحتفال بعيد الغطاس في عام ٤١٥ هـ/ ١٠٢٥ م في خلافة الظاهر ، بأن الخليفة نزل بنفسه لنظر الغطاس ، وضربت للخليفة وحرمة الخيام ، كما أمر الخليفة بأن توقد النار والمشاعل في الليل ، وكان

(٧٠) ميعة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ١٨٨ .

(٧١) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، صفحات ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٧٢) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .

هذا الاحتفال يمثل أقصى مظاهر المشاركة بين المسلمين والذمين ، فكانت تنصب الخيام على شاطئ النيل ، ويمتلئ النيل بالزوارق والمراكب التى توجد فيها الأنوار ليلا ، حيث يشعل فى تلك الليلة أكثر من ألف مشعل على الشطوط ، ولا يفلق فيها دكان ولا درب ولا سوق ، ويتبادل الناس فى هذه الليلة الهدايا من أصناف الطعام والحلوى المختلفة (٧٣) . وكانت العادة أن يضاء سوق الشماعين وكانت حوانيته لاتزال مفتحة إلى نصف الليل حيث يقصدها كثير من الناس (٧٤) . وكان من رسوم الدولة أن يفرق على جميع أهل الدولة النارج والليمون والقصب والسبك والبورى برسوم مقررة (٧٥) .

وفى عيد خپس العهد ، كانت الدولة تضرب عملة صغيرة تسمى « خرابب » فى هذا اليوم وتفرق على رجال الدولة (٧٦) ، وفيه كان قبط مصر يأكلون العدس ، ويخرج أهل الاسكندرية الى المنارة بمآكلهم ، منهم من يذكر الله ومنهم من يصلى ومنهم من يلعب ولا يزالون هناك الى نصف النهار وكان يباع فى هذا اليوم فى أسواق القاهرة بيض مصبوغ عدة ألوان (٧٧) .

وفى ليلة عيد الميلاد ، كان يحتفل بايقاد النيران ، وكانت الدولة الفاطمية تفرق فيه جامات الصلواة القاهرية على أرباب الرسوم ورجال الدولة فضلا عن طيافير الزلابية وماء الورد والسبك

(٧٣) ابن ايلس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، صفحات ٢١٢ - ٢١٣ .

(٧٤) القرىزى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

(٧٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .

(٧٦) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

(٧٧) نفسه .

البورى ، وكانت توقد الحوانيت والشوارع بالفوانيس ، ويعطى للفقراء فوانيس ، يحملونها فى أيديهم ولهم على ذلك درهم (٧٨) .

ومن اعياد النصرارى التى شارك فيها المسلمون أيضا ، عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة ، وجرت العادة أن يقوم العامة والسوقة بالطواف على أسواق البلد بالطبول والبوقات ليجمعوا ما ينفقوه فى خروجهم الى السجن ، لكن فى عام ١٥٤١ هـ / ١٠٢٥ م. اشتد الغلاء ، فامتنع التجار عن الدفع ، فأمر الخليفة الظاهر بأن يدفعوا ما جرت به العادة فى هذا اليوم وأن تطلق لهم الدولة ضعف ما أطلق للمحتفلين فى السنة الماضية ، فخرجوا الى السجن ومعهم التماثيل والمضاحك والخيال والحكايات كما خرج الخليفة الظاهر فى جميع من معه من خاصته وحرمة وأقام يومين وشهد هذا الاحتفال ، وأقام أهل الأسراق نحو الأسبوعين يترقون الشوارع بالخيال والتماثيل ويطنون فى القاهرة ليشاهدتهم الخليفة الذى كتب لهم سجلا بأن لا يعارضهم أحد منهم فى ذهابه وعوده (٧٩) .

وفى عيد النيروز ، وهو مبدأ السنة الشمسية ، كان الفاطميون يحتفلون أيضا مع الرعية فى هذا اليوم ، وفى خلافة الأمر التى اكتملت فيها الرسوم الفاطمية كان الاحتفال بهذا اليوم فى عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م غاية فى البهاء حتى أن الدولة كانت تطلق الكسوة المختصة بالنيروز من دار الطراز وتطلق كثير من الكسوات الرجالية والنسائية وجميع الأصناف المختصة بالموسمين على اختلافها والفاكهة بجميع أنواعها (٨٠) .

(٧٨) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

(٧٩) المغريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

(٨٠) نفسه ، صفحات ٢٦٨ - ٢٦٩ .

وخلاصة القول ، ان أهل الذمة قد شملتهم رعاية الدولة على الصعيد الاجتماعى . وساكثروا المسلمين فى المدن القديمة والأبصار الإسلامية وظلوا يحتفلون بأعيادهم فى حرية تامة يشاركونهم المسلمين هذه الاحتفالات فى بهجة وسرور .

وعلى الصعيد الثقافى برزت أسماء كثيرة لأهل الذمة فى مجالات مختلفة مؤكدة ما أتيح لهم من حرية التعليم والمشاركة الفعلية فى المجتمع الإسلامى ، فدرسوا أغلب العلوم العقلية على اختلاف أنواعها ، بل درسوا كل ما يعود الى اللغة العربية واليونانية من أصناف العلوم والمعارف والفنون كالنحو والتاريخ والجغرافيا والهندسة والطب على وجه الخصوص .

حرية التعليم :

ومن الثابت أن تحصيل العلم لم يكن رسمياً ، فتركت الحرية الكاملة لتقرير ما يدرس من قبل الشيوخ ، كما أتيح للطلبة بشكل عام تلقى العلم حسبما أرادوا ، فكان لذلك أثر فى تنوع الدراسة وخلق نوعاً من الثقافة الموسوعية (٨١) لاسيما أن هذه الظاهرة كانت أكثر وضوحاً بداية من منتصف القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى مع العباسيين ، لذلك فاستفاد أهل الذمة من هذه الحرية ، ووجدنا نصارى بغداد يتمتعون بحرية التعليم داخل مدارسهم التى ازدهرت ازدهاراً لا نظير له ، كذلك كانت لديهم مكاتب البيع فضلاً عن ذلك مدارس الديارات التى ضمت آلافاً من الدارسين والمعلمين ، فدرسوا كثيراً من العلوم العقلية الى جانب العلوم الدينية ، وقد ألحق بهذه المدارس خزائن للكتب ، ومن

(٨١) كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ص ٢٢٢ ، محمود اسماعيل
سوسولوجيا الفكر الإسلامى ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

اشهرها مدرسة الشماسية ودار الروم ومدرسة كليشوع ومدرسة دير مارمينو (٨٢) .

هذا فضلا عن تشجيع الحكام للعلم ، سواء كان خبثه من العرب أو غير العرب ، من المسلمين أو غير المسلمين (٨٣) ، فأدى ذلك الى تردد الذميين على مدارس المسلمين واشتراكهم مع الطلبة المسلمين في طلب العلم ويبدو أن هذا الأمر قد استثنى ، وتزامن مع اشتطاط الذميين في عصر المتوكل ، لذلك شملت أواصره المعروفة تجاه أهل الذمة ، بأن لا يتعلم أولادهم في مكاتب المسلمين ولا يستعان بهم في أعمال السلطان ولا يعلمهم مسلم (٨٤) .

غير أن ما سنه الخليفة المتوكل ، لم يستمر الا لفترة قصيرة والسبب في ذلك ليس عدم قدرة الحكام المسلمين على أن تكون قراراتهم نافذة تجاه أهل الذمة ، بقدر تأثير فعاليات المجتمع المسلم على حياة الذميين وما أتيح لهم من حريات واسعة طوال العصر الاسلامي لدرجة كان عدم الامتثال لهذه القرارات لا يعد خروجاً ولكنه كان استمراراً للحياة السهلة التي تعودوا عليها وشدهم اليها حالة التسامح القصوى من قبل المسلمين .

لذا قرأ كثير من النصارى على مدرسين وفقهاء مسلمين ، فمثلاً تلقى حنين بن اسحق المتوفى عام ٢٦٠ هـ / ٨٧٤ م دروساً في العربية على الخليل بن أحمد (٨٥) ، ودرس يحيى بن عدى بن حيد التكريني نزيل بغداد المنطق على يد أبي نصر الفارابي (٨٦) ، كما

(٨٢) روثايل بابو اسحق : احوال نصارى بغداد ، صفحات ١٣٦ - ١٣٧ .

(٨٣) مصود اسماعين : انرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(٨٤) الطبري : تاريخ الامم والملوك ، ج ١ ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٨٥) ابن ابى اصيبعة ، طبقات الاطباء ، ج ٢ ، ص ١٣٩ .

(٩٦) نفسه : ص ٢٢٧ .

قرأ الطبيب البغدادي يحيى بن عيسى بن جزلة قبل أن يسلم
المتوفى عام ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م علومه على يد علي بن الوليد شيخ
المعتزلة (٨٧) .

كما كان من مظاهر حرية التعليم أيضا قيام بعض المسلمين
بتلقى علومهم على أيدي الذميين ومنهم الطبيب البغدادي سالف
الذكر الذي تعلم الطب لدى نصارى الكرخ (٨٨) وربما هذه الظاهرة
ارتبطت بالذميين الذين أسلموا وظلوا على علاقة وثيقة بمؤسساتهم
التعليمية وإن عمل بعض الذميين في صدر الإسلام وبعده لاسيما
النصارى منهم في تعليم أولاد المسلمين ، لكن في أضيق الحدود ،
فالحجاج بن يوسف الثقفي وإلى العراق أثناء خلافة عبد الملك
والوليد أراد مؤدبا لولده فخير بين المؤدب النصراني والمسلم ففضل
المؤدب المسلم (٨٩) .

وهناك ظاهرة أخرى جديرة بالملاحظة ، وهي المام بعض
المفكرين المسلمين بالتوراة والانجيل ، فيذكر ابن خلكان (٩٠) أن
الفقيه الشافعي أبا الفتح موسى بن أبي الفضل الملقب كمال الدين
كان مسلما عالما بشروح التوراة والانجيل ، وكان أهل الذمة يقرأون
عليه ويشرح لهم هذين الكتابين شرحا وافيا حتى كانوا يقولون ،
إنهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله ، وهذا الأمر مرتبط إلى حد
كبير بمنأخ التسامح الذي ساد دار الإسلام بشكل عام وسوف
يقودنا ذلك إلى ما كان يتم على الصعيد الفكري في أوقات معينة
من المحاورات والمساجلات بين المسلمين وأهل الذمة دون أدنى

(٨٧) نفسه : ص ٢٦٠ .

(٨٨) نفسه : ص ١٧٦ .

(٨٩) الاصفهاني ، الاغانى ، ج ١٨ ، ص ٧٨ .

(٩٠) وفيات الاميان ، ج ٥ ، ص ٣١٠ .

تعصب حول أخص خصوصيات المسائل العقيدية والتي بهر بها بعض المستشرقين ومنهم كلود كاهن(٩١) ، الذى أشاد بروح التسامح آنذاك وشارن بينها وبين ما ساد الدولة البيزنطية فى تلك الفترة أيضا من تعصب واضطهاد تجاه الأقليات الدينية المخالفة ، وكذلك يشير آدم مترز(٩٢) الى تسامح المسلمين فى حياتهم مع اليهود والنصارى ، الذى لم يسمع بمثله فى العصور الوسطى ، حتى أنه لحق بمباحث علم الكلام سنن لم تكن قط من مظاهر العصور الوسطى ، وهو علم مقارنة الملل حتى ألف المسلمون كتباً عدة فى وصف الأديان الأخرى .

الترجمة :

وبدئى أن ينعم أهل الذمة فى هذا المناخ المفعم بالحرية والتسامح بحرية التعليم ويسفر ذلك عن تألق نجمهم فى شتى المجالات ويظهر منهم علماء مبرزين ، واحتلت الترجمة اهتمام أهل الذمة لسابق معرفتهم بلغات مختلفة مثل اليونانية والسريانية ، فعنى عصر الخليفة المأمون بين عامى (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٥ - ٨٣٢ م) الذى شهد نشاطا واضحا فى الانفتاح على الحضارات السابقة ، نتيجة لما قام به الخليفة من تشجيع لهذه الحركة العلمية حيث كانت دار الحكمة مركزا للدراسة والبحث والترجمة ، وما قامت به الخلافة من عقد صفقات ثقافية مع الدولة البيزنطية لنقل نواصر التراث اليونانى . وكذلك انتقال تراث الهند من خلال مجهودات التجار فى عصر شهد ازدهار التجارة أثناء سيادة العالم الاسلامى على معظم البحار ، نظهرت عدة أسماء فى هذا المجال كان لها دور كبير فى ترجمة علوم الأوائل ، حتى قبل الدولة العباسية ، ومنهم

(٩١) تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص ١١٦ .

(٩٢) الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

مأشرجويه وكان سريانيا يهوديا ، تولى فى أيام مروان بن الحكم نقل كتاب اهرت بن أعين من السريانية الى العربية وزاد فيه مقالتين باعتباره كان من الأطباء المبرزين وقتذاك فى البصرة ، ولما ولى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وجد هذا الكتاب فى خزائن كتب الشام ، فأخرجه للمسلمين للاستعانة به (٩٣) ، وأول من ابتداء نقل الكتب فى الدولة العباسية الطبيب جورجىوس بن جبرائيل أيام الخليفة المنصور (٩٤) ، وهناك أيضا حنين بن اسحق ، وكان عالما بلغات أربع ، العربية ، واليونانية ، والفارسية ، والسريانية واستمر ابنه اسحق فى القيام بهذا العمل ، باعتباره متقنا لنفس اللغات ، كذلك حبش الاعشم ابن أخت الطبيب حنين وتلميذه عيسى بن يحيى (٩٥) ، هذا فضلا عن يحيى بن البطريق الرهاوى ، ويبدو أن العمل بالترجمة من جانب بعض الأطباء قد أدى الى تلقيب بعضهم بالناقل أو الترجمان مثل يوسف الناقل وموسى بن خالد الترجمان الذى نقل عدد كبير من كتب جالنيوس (٩٦) .

وفى التنجيم ، برزت أيضا عدة أسماء منها ثيوفيل بن توما النصرانى ، الذى كان رئيس منجمى الخليفة المهدي فى بغداد لخبرته بحوادث النجوم وأحكامها ، كذلك عبد الله بن مسرور النصرانى المنجم وقسطا بن لوقا البعلبكي الذى كان الى جانب علمه بالهندسة والحساب يعمل بالتنجيم فى أيام الخليفة المقتدر (٩٧) .

-
- (٩٢) ابن ابى اصبيحة ، طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .
 - (٩٤) نفسه ، ص ٣٧ .
 - (٩٥) نفسه ، صفحات ١٦٥ - ١٦٧ .
 - (٩٦) نفسه ، صفحات ١٧١ ، ١٧٦ ، ٢٤٢ .
 - (٩٧) القطي ، أخبار العلماء ، صفحات ٧٧ ، ١٤٩ .

الطبيب :

كما برز عديد من الأسما في مجال الطب ، لاسيما من النصارى على وجه الخصوص ، ومما يستلفت النظر أن الأطباء كانوا محصورين في أسسرات معينة تمارس الطب وتلتحق بخدمة الخلفاء ، حيث كان هناك أطباء مختصون بالخلفاء ولذا منحوا الرواتب العليا والهبات الواسعة والمبالغ الطائلة ويكفى تدليلا على ذلك أن نذكر بعض المشاهير من الأطباء وقتذاك .

ومع الدولة الأموية كان « أوثال » طبيبا مميذا في دمشق . وهو نصراني وكان خصيصة بالخليفة معاوية بن أبي سفيان (٩٨) . كذلك عمل « تيانوق » الطبيب في خدمة الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكان له عدة تلاميذ قدموا بعده ، ومنهم من أدرك الدولة العباسية مثل « فرات بن سخنتا » طبيب عيسى بن موسى ، الذي مات في خلافة المنصور (٩٩) .

ومن أطباء الدولة العباسية « خصيب » كان من أهل البصرة واشتهر في عهد أبي العباس السفاح وبداية عصر المنصور ، واحتكر الأطباء الذين ينتمون إلى مدينة جند سابور الاشراف على تطبيق الخلفاء من أسرة معينة تبدأ مع المنصور حتى مع وجود بعض الأسماء القليلة التي ملئت إلى جانبهم وبدأت هذه الأسرة بالطبيب « جورجيو بن جبرائيل » الذي كان حظيا لدى المنصور ونال من جهته أموالا طائلة (١٠٠) ، كما لحق بختشيو بن جورجيس بأبيه في معرفته

(٩٨) ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

(٩٩) القسطنطيني ، المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(١٠٠) ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .

بالطب وخدم الخليفة الرشيد ومن بعده من الخلفاء وكانت منزلته رفيعة عند الرشيد حتى قال : (من كانت له حاجة فليخاطب فيها جبرائيل ، لأني أفعل كل ما سألني ويطلبه مني) (١٠١) كما جعله الرشيد رئيساً للأطباء وظل يعمل طبيباً للأمين الذي وهب له أموالاً كثيرة وأكرمه ، وكان لا يأكل ولا يشرب إلا بأذنه (١٠٢) ، ولم يكن عمل هؤلاء الأطباء مرتبطاً فقط بالخلفاء ، بل عملوا أيضاً لدى ولاية العهد أخوة الخلفاء وعمومتها وقرباتها ووجوه الموالي والتواد (١٠٣) ، لذا كان رزق بختشيوغ يشمل عدة جهات ، فكان يحصل على عشرة آلاف درهم من رسم العامة في كل شهر ، ومائة وعشرين ألف درهم من رسم الخاصة في المحرم من كل سنة (١٠٤) وقد أعطاه الرشيد عندما شفى جاريته خمسمائة ألف درهم (١٠٥) .

ثم أقل نجم هذه الأسرة مع الخليفة المأمون ، لتحل محلها أسرة أخرى ، وهي أسرة ماسوية بن يوحنا الذي كان يعمل بالصيدلة في عصر الرشيد واتصل بأسرة بختشيوغ وأرتبط معها برباط المصاهرة ثم عمل ولداه لدى الخلفاء فعمل ميخائيل عند المأمون أما يوحنا فعمل طبيباً للمأمون أيضاً حتى المتوكل (١٠٦) ، كما كان سلمويه يعمل طبيباً لدى الخليفة المعتصم الذي أكرمه كثيراً ، ويبلغ المؤرخون (١٠٧) في المنزلة التي حظى

-
- (١٠١) القطعي ، أخبار الأطباء ، ص ٩٢ .
 (١٠٢) نفسه ، ص ٩٨ .
 (١٠٣) نفسه ، ص ٩٧ .
 (١٠٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٨ .
 (١٠٥) القطعي ، المصدر السابق ، ص ٩٤ .
 (١٠٦) ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق : صفحات ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٧ .
 (١٠٧) نفسه ، صفحات ١٠٥ : ٢٠٦ .

بها هذا الطبيب حتى أن التوقيعات التي كانت ترد الى الدواوين بتوقيعات المعتصم كانت بخط سلمويه وكذلك كل ما يرد على الأمراء والقواد من أمور وتوقيعات ، كما أن أخاه ابراهيم تولى الاشراف على بيوت الاموال في البلاد .

لكن سرعان ما عادت لسرة بختشيوع الى الظهور في عهد الخليفة الواثق ونتيجة للثراء الفاحش الذي وصل اليه هذا الطبيب استلقت انظار الجميع فتحول الخليفة عنه بعض الوقت ، ومع اعتلاء الخليفة المتوكل عرش الخلافة صلحت حاله وبلغ من الرفعة وعظم المنزلة ما لم يبلغه أحد ، حتى أنه كثر ماله ، وكان يتبارى مع الخليفة المتوكل في الزى والطيب والضيافات (١٠٨) .

كما عمل يوحنا بن بختشيوع لدى الموفق بالله طلبة أخرى الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٨ هـ / ٨٧٠ — ٨٩٢ م) وكان يسميه الموفق مفرج الكرب ، وكانت منزلته رفيعة لدى الموفق ، حتى أنه كان يشكو له ما يجري عليه في ضياعه وأملأه فيكتب له الموفق بما يرد شكواه ويصلح أمره (١٠٩) ، وعمل لدى الخليفة المقتدر الطبيب بختشيوع بن يوحنا الذي كان خصيصا له ، وأنعم عليه بالانعامات والاقطاعات من الضياع وظل بعده في خلافة الراضى ، كذلك عمل في خدمة المقتدر جبرائيل بن عبد الله بختشيوع الذي ورث هذه المهنة أيضا عن أجداده (١١٠) .

وليس معنى هذا العرض السابق أن هذا المجال كان وقفاً على النصارى من دون المسلمين ، فقد حفل كتاب ابن أبى أصيبعة

(١٠٨) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

(١٠٩) نفسه : ص ١٦٨ .

(١١٠) نفسه : صفحات ١٦٦ ، ١٧٢ .

بأسماء كثيرة للأطباء المسلمين الذين عملوا فى هذه المهنة ، لكن كان الغرض هو محاولة تركيز الضوء على هذه الطائفة التى سمح لها أن تختص بخدمة الخلفاء لتؤكد حقيقة طالما ترددت طوال البحث وهى روح التسامح لدى المسلمين التى شملت كافة أوجه النشاط التى عمل بها أهل الذمة .

أما فى مصر ، فقد أسفر الفتح العربى عن استخدام اللغة القبطية التى سمح العرب باستخدامها حتى طغت على اللغة اليونانية ، التى كانت هى اللغة السائدة أيام البيزنطيين وسرعان ما أصبحت اللغة العربية هى اللغة المعمول بها فى الدواوين الرسمية كما أسلفنا ، فبدأ النُميون يتعلمون العربية حتى يحتفظوا بوظائفهم ، ولم يبدأ القبط فى ترك لغتهم الا فى أواخر القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى ، بدليل وجود بعض المؤلفات سواء فى الموضوعات الدينية أو فى التاريخ كتبها الأقباط باللغة العربية مثل ما كتبه « سعيد بن البطريق » تاريخه الذى يعد من أقدم تواريخ النصرانى فى مصر الإسلامية ، هذا فضلا عما كتبه « ساويرس ابن المقفع » أسقف الأشمونيين باسم « سير الآباء البطارقة » أو « سير البيع المقدسة » ، وهذا مما يؤكد حقيقة هامة وهى مدى ما وصلت اليه اللغة العربية آنذاك (١١١) .

ومما يؤكد أيضا انتشار اللغة العربية بين يهود مصر ، أن وثائق الجنيزة كتبت بالعربية بحروف عبرية ، وفى خلال عصر الولاة كان هناك بعض اليهود الذين تألقوا فى الحياة الثقافية منهم ماشا الله (١٥٢) — ٢٠٥ هـ / ٧٧٠ — ٨٢٠ م ؛ وهو فلكى شهير ، كما بدأت فى تلك الفترة الدراسات العبرية تحتل مكانة هامة لدى يهود مصر (١١٢) .

(١١١) قاسم : أهل الذمة ، ص ٢٨ .

Wann, The Jews, P. 14. (١١٢)

ومع الدولة الطولونية ، ظهر كثير من المهندسين والأطباء ومنهم المهندس القبطى سعيد بن كاتب الفرغانى ، المهندس القبطى الذى استخدمه ابن طولون فى تصميم بناء جامعة فى مدينة القطائع وكافأه على هذا العمل بمبلغ عشرة آلاف دينار ، كما أجرى عليه الرزق الى أن مات (١١٣) ، كما استخدم ابن طولون عدد من الأطباء من النصرانى واليهود على السواء ومنهم « سعيد بن نوفيل » الطبيب النصرانى والحسن بن زيرك اليهودى ، وكان فى بعض الأحيان يجتمع أطباء البلد للمشاورة فى أحوال ابن طولون الصحية الى جانب أطباء الخاص (١١٤) .

كما لمعت عدة أسماء من الذميين فى العصر الاخشيدى ، فبرز الطبيب اليهودى « موسى بن العزازار » الذى توفى عام ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م (١١٥) ، كما ظهر من أعلام اليهود ونوابقهم فى هذه الفترة « سعيدا الفيومى » (٢٧١ — ٣٣١ هـ / ٨٨٣ — ٩٤٣ م) الذى ينتسب الى مدينة الفيوم ، وكان سعديا طبيبا ماهرا وفيلسوبا ولغويا وشاعرا ، بالإضافة الى كونه تاجرا ، استطاع أن يتبوأ مركزا مرموقا فى بغداد بفضل علمه وثقافته الى أن وصل الى وظيفة جاعون سورا والرئيس الدينى لجماعة اليهود ، وقام ايضا (١١٦) بترجمة التوراة الى اللغة العربية ، فضلا عما ألفه من كتب فى النواحي الدينية الأخرى (١١٧) ، كما أصبح سعديا أول فلاسفة اليهود الربانيين والمتحدث باسمهم ضد

(١١٣) البلوى ، سيرة احمد بن طولون ، صفحات ١٨١ ، ١٨٣ : المتريزى ،

الخط ، ج ٢ ، صفحات ٢٦٥ — ٢٦٦ .

(١١٤) نفسه ، صفحات ٣١٩ ، ٣٢٩ .

(١١٥) ابن أبى أصيحة ، طبقات الأطباء ، صفحات ٥٤٤ — ٥٤٦ .

Goitein, Jews and Arabs, P. 118. (١١٦)

Mann, Op. Cit., 1, PP. 14 — 15. (١١٧)

طائفة القرائين على يد عنان بن داود(١١٨) ، وظهر من النصارى « سعيد بن البطريق » الذى برع فى الطب الى جانب علمه الفيزى بعلوم النصارى ومذاهبهم ، فالف ابضا فى التاريخ ، كما تولى بطريركية الملكانية عام ٣٢١ م / ٩٣٠ م(١١٩) .

وفى العصر الفاطمى الذى اتسم بالتسامح تجاه اهل الذمة ، فمن الطبيعى أن يحرزوا مكانة ممتازة فى الحياة الثقافية ، فبرزت عدة أسماء من اليهود والنصارى على السواء الذين امتهنوا الطب ، منهم « الحقر النافع » طبيب الخليفة الحاكم الذى كان يعمل بمداواة الجروح وأظهر براعة فائقة فى هذا الأمر حتى أكرمه الحاكم وأعطاه ألف دينار وخلق عليه ولقبه بهذا اللقب السابق وجعله من أطباء الخاصين الذين كانوا أطباء يهودا ونصارى منهم منصور بن سهلان ابن مقشّر النصرانى(١٢٠) . كما خدم الخليفة الحافظ أطباء من أهل الذمة ومنهم أبو منصور اليهودى وابن قرفة النصرانى وطلب منهما تحضير جرعة قاتلة لابنة الحسين الذى خرج عليه فرفض اليهودى وفعلها النصرانى ، وبعد فترة قتل الخليفة الطبيب النصرانى ، بينما كافأ اليهودى بترقيته الى منصب رئيس أطباء البلاط(١٢١) .

وفى الأندلس ، ظهر عدد كبير من الأطباء اليهود على وجه الخصوص ، الذين تمتعوا بالتسامح والرعاية من قبل الحكام والخلفاء ومنهم :

-
- (١١٨) القوصى ، اليهود ، صفحات ٤٨ — ٤٩ .
 - (١١٩) المترى : الخط ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .
 - (١٢٠) القسطنطينى ، أخبار العلماء ، ص ١٢٢ .
 - (١٢١) المترى ، المصدر السابق ، ص ١٨ .

حسيداى بن اسحق بن شسبروط ، كان طبيباً ببرزاً
 فى عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم ، قام بترجمة كتاب
 ديسقوريدوس عن الأعشاب الطبية من اليونانية الى العربية ، كذلك
 كان يهتم الى جانب صناعة الطب بفتح اليهود وتاريخهم (١٢٢) ،
 والطبيب ابن بكلاش اليهودى ، ألف كتاب « المجدولة فى الأدوية
 المفردة » ألفه بمدينة المرية (١٢٣) ، والطبيب مروان بن جناح ، كان
 له عناية بالطب الى جانب معرفة بالمنطق والتوسع فى علوم العربية
 والعبرية ، وله من الكتب ، « كتاب التلخيص » وقد ضمنه ترجمة
 للأدوية المفردة وتحديد المقادير المستعملة فى صناعة الطب
 والأوزان والمكاييل (١٢٤) ، والطبيب أبو الفضل حسيداى بن يوسف
 ابن حسيداى ، كان من أشـرف اليهود فى الأندلس عنى بالعلوم
 على اختلافها ومنها الطب ثم الطبيب الرئيس موسى بن ميمون كان
 أوجد أهل زمانه فى صناعة الطب وفى أعمالها وكان له عدد من
 الكتب منها « اختصار الكتب الستة عشرة لجالينوس » ومقالة
 فى البواسير وعلاجها ومقالة فى تدبير الصحة ومقالة فى
 السهوم « (١٢٥) ، وغيرهم كثيرون استطاعوا أن يستفيدوا من
 الظروف المتاحة لهم من حرية وتسامح ليحملوا لواء الثقافة الى جانب
 أعداد غفيرة من المسلمين الذين شادوا الحضارة الإسلامية فى
 مختلف أرجاء الدولة المتسعة .

(١٢٢) ابن أبى اسبيعة . طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

(١٢٣) نفسه ، ص ٥٢ .

(١٢٤) نفسه ، ص ٥٠ .

(١٢٥) نفسه ، ص ٥٢ .

الخاتمة

تمخضت الدراسة عن عرض للاطار النظرى والتطبيقاتى لمعاملة
أهل الذمة ، تناولنا فى البداية ما جاء فى القرآن والسنة النبوية
وما وضعه الفقهاء فيها يخص الطوائف الدينية من غير المسلمين ثم
تناولت الدراسة كافة الجوانب التطبيقية من حرية دينية ومشاركة
فى وظائف الدولة ودورهم فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية
والثقافية من خلال المادة التاريخية المبعثرة فى بطون المصادر وكذا
دراسة المراجع التى من خلالها أمكننا رسم صورة لوضع أهل
الذمة فى دار الاسلام .

ويتضح من دراسة النصوص القرآنية ، أن الاسلام كان
صريحاً ، فيها يتعلق بالدعوة الى الاسلام ، التى يجب أن تكون
من خلال الاقتناع وهى نفس السياسة التى سار عليها الرسول
(صلى الله عليه وسلم) ، كما سار العرب الفاتحون على نفس
المنهاج القويم فى الدعوة .

وانتهينا الى أن عهد الأمان التى أبرمت مع أهالى البلاد
المتفوحة قد اتاحت كافة الحريات الدينية والمدنية التى لم تتح لهذه
الشعوب قبلاً ، وارتبطت هذه الحريات بالجزية التى روعى فيها
دائماً التخفيف كذلك قد تقرر لغير المسلمين بمقتضى هذا الصلح
حيازة أراضيهم مقابل دفع ضريبة الخراج ، وإذا كان أهل الذمة
قد ألزموا ببعض الواجبات ، فهى لا يمكن أن تقارن بما اتاحت لهم .

الدولة الإسلامية من امتيازات أقلها التمتع بهرافق الدولة ، حتى هذه الواجبات ومنها ضيافة جند المسلمين يتضح منها الفرق أما الشروط الأخرى من منعهم من الغش وغيره فهي أمور طبيعية مرتبطة بمساكنة أهل الذمة للمسلمين على أرض واحدة ، كما أن الجزية التي تعتبر شرطا لحماية الذمة فعدم الوفاء بها لا يعد نقضا للعهد .

وفيما يخص الإطار الذي وضعه الفقهاء وضمنوه بعض الشروط التي بموجبها يتم عقد الذمة انتهينا بعد دراسة الشرط الخاص بالغبار أن ما تعرض له أهل الذمة من قيود صدرت في صورة أوامر ملزمة ، كان السبب فيها تصرفاتهم نتيجة لعدم التزامهم بالشروط السهلة المفروضة عليهم في البداية ، ثم زيادة سطوتهم وخيانتهم للمسلمين مما أدى إلى إصدار مثل هذه الأوامر في أوقات متفرقة والتي لم يلتزم بها في الغالب إلا في السنوات التي صدرت فيها .

أما المسألة الثانية الخاصة ببناء الكنائس ، فقد خلصنا إلى أن الدولة الإسلامية قد أتاحت لأهل الذمة ، لاسيما والنصارى بناء الكنائس في المدن الجديدة ، مع أن هذا الأمر غير مسموح به في حفظ المسلمين ، مما يؤيد أن هذه الأوامر لم تنفذ وكانت مجرد أطارا نظريا ، كما كانت هذه الكنائس تشيد بموافقة الحكام .

وفيما يخص الحرية الدينية ، وجدنا أن المسلمين قد أتاحوها لأهالي البلاد المفتوحة ، تلك التي طالما اغتدوها ، فقد جاء الإسلام في وقت ليس فيه حرية في كافة أرجاء المعمورة بل اضطهاد وتعذيب ، ثم شملت سماحة الإسلام كل هذه الأرجاء مما جعل كثيرا من أهل الذمة يدخلون في الإسلام ، أما الذين ظلوا على دينهم فتمتعوا بحرية ممارسة شعائهم وطقوسهم داخل معابدهم

وكنائسهم وبيعهم بحرية تامة لهم انظمتهم الداخلية التى لا دخل للدولة الاسلامية بها .

أما عن وظائف أهل الذمة فى الجهاز الإدارى ، فقد سمح لهم مناخ الحرية الذى عاشوا فيه فى دار الاسلام من تصدريهم للوظائف العليا فى إدارة الدولة الاسلامية فكان منهم الكتاب وعمال الخراج وقادة الجيوش والوزراء فى بعض الأحيان .

كما أن دورهم فى الحياة الاقتصادية قد تأثر بكل النواحي السابقة فبديهي أن ينعكس ذلك على مزاولتهم لأعمالهم واسهاماتهم بكثير من الأعمال فى المجتمع الاسلامى وأحوال المنطقة وقتئذ من ازدهار بشكل عام خاصة الذى وضع ايماء وضوح على التجارة ليؤكد قوة الدولة الاسلامية على الصعيد السياسى وقدرتها على أن تكون دولة عالمية وسيدة للبحار ، كل ذلك وفيره ساعد على ظهور أهل الذمة بشكل واضح فى المجال الاقتصادى وتألقوا على وجه الخصوص فى العمل بالتجارة ، وما صاحبها من أعمال ترتبت على نشاط التجارة مثل الصيرفة والجهذة اللتين كان لأهل الذمة من يهود ونصارى على وجه الخصوص دور ملحوظ فيهما ، لعزوف المسلمين عن العمل بهذه الأعمال لعلاقتها بالربا .

وعلى الصعيد الاجتماعى ، فقد اظلمت الدولة بالرعاية الاجتماعية ، وانفقت على مساكين أهل الذمة من أموال الصدقات وساكنتهم المسلمون فى المدن القديمة والأحصار الاسلامية ، كما تركوهم يحتفلون بأعيادهم فى حرية تامة وشاركهم المسلمون فى هذه الاحتفالات فى بهجة ورسرور كما شاركهم الحكام أيضا باهتمام كبير .

ونفس الشيء انتهينا اليه على الصعيد الثقافى ، فقد أتيح لهم أن يظهروا فى هذا المجتمع من خلال ما أتيح لهم بشكل عام من حرية التعليم وحرية الرأى مما أدى الى ظهور كثير من الأسماء فى مجالات مختلفة لأطباء ومهندسين مبرزين من اليهود والنصارى على السواء ، حتى أن كتب المسلمين قد خصصت وبدون تعصب جزءا من مؤلفاتهم لالقاء الضوء على النابغين منهم مما يؤكد روح التسامح التى توفرت لهم آنذاك .

وأخيرا ، لنا أن نقرر أن أهل الذمة قد نعموا بجميع الحريات والحقوق فى دار الاسلام بما أتيح لهم من امتيازات سمحت لهم كما أسلفنا بالقيام بنشاط كبير على كافة الأصعدة السابقة مما ترتب عليه تمتعهم بوضعية اجتماعية مميزة عاشت فى كنف المسلمين حياة سهلة ، عايشوا المسلمين واختلطوا بهم ، وإذا كانوا قد تعرضوا لبعض النواهى من خلال الأوامر التى صدرت فهذا يرجع أساسا الى اشتغالهم فى الرغبة فى الحصول على أكثر مما ينبغى من حقوق وحریات من ناحية وتسامح المسلمين من ناحية أخرى .

ثبت المصادر والمراجع

القـرآن الـكـریم

ابن الاثیر :

- محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) .
الكامل في التاريخ ، القاهرة ١٩٨٣ .

ابن الجوزی :

- أبو الفرج عبد الرحمن (٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) .
المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ١٩٩٢ .

ابن حوقل :

- أبو القاسم محمد البغدادي (٤٨٠ هـ / ٩٩٠ م) .
المسالك والممالك ، لندن ١٨٧٣ .

ابن الأخـوة :

- محمد بن محمد بن أحمد القرشي ، ت ٧٢٩ هـ .
معالم القرية في أحكام الحسبة ، القاهرة ١٩٧٦ .

ابن خرداذبة :

- أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (توفي حول عام ٣٠٠ هـ) .
المسالك والممالك ، لندن ١٨٨٩ م .

ابن الخطيب :

- (لسان الدين) الاحاطة فى أخبار غرناطة .
تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥ م .

ابن خلدون :

- عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨ .
المقدمة .

ابن خلكان :

- شمس الدين أبو العباس (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م) .
وفيات الأعيان ، القاهرة .

ابن الصيرفى :

- على بن منجب ، الاشارة الى من نال الوزارة .
القاهرة ١٩٢٤ .

ابن عبد الحكم :

- أبو محمد عبد الله بن الحكم ، (ت ٢١٤ هـ) .
سيرة عمر بن عبد العزيز ، القاهرة ١٩٢٧ .
فتوح مصر وأخبارها ، طبعة ١٩٢٠ .

ابن العسبرى :

- تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ .

ابن عذارى :

- محمد بن عذارى المراكشى (توفي أوائل القرن الثامن
الهجرى) .
البيان المغرب فى أخبار المغرب ، بيروت ١٩٦٧ .

ابن القوطية :

- محمد بن عمر بن عبد العزيز (ت ٣٦٧ هـ) .
- تاريخ افتتاح الاندلس ، بيروت ١٩٨٢ .

ابن القيم الجوزية :

- (شمس الدين ت ٧٠١ هـ) .
- احكام اهل الذمة ، نشره صبحى الصالح ، دمشق ١٩٦١ .

ابن كثير :

- عماد الدين ابو الفدا اسماعيل (ت ٧٧٤ هـ) .
- تفسير القرآن العظيم ، القاهرة ١٩٨٠ .

ابن المقفع :

- (ساويرس اسقف الاشمونيين) .
- تاريخ بطاركة الاسكندرية ، نشره يسى عيد المسيح ،
- اسولجبرمستد ، القاهرة ١٩٤٣ .

ابن ممتى :

- توانين الدواوين ، نشره سورياي ، القاهرة ١٩٤٣

ابن منظور :

- جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) .
- لسان العرب ، بيروت ١٩٥٦ .

ابن ميسر :

- اخبار مصر ، القاهرة ١٩٨١ .

ابن هشام :

- ابو محمد عبد الملك بن هشام المعافى المتوفى ٢١٣ هـ .
- السيرة النبوية ، قدم لها وعلق عليها طه عبد الرؤوف ،
- القاهرة ١٩٧٩ .

ابن أياس :

- محمد بن أحمد بن أياس المصري .
- بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٨٢ .

ابن أبى اصبيحة :

- وفق الدين أبو العباس ، (ت ٦٦٨ هـ) .
- ميون الأنباء فى طبقات الأطباء ، بيروت ١٩٦٥ .

أبو صالح الأزمنى :

- كنائس وأديرة مصر ١٨٩٤ .

أبو العرب :

- طبقات علماء أنريقية ، تونس ١٩٦٨ .

أبو الفرج الأصفهاني :

- (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م) تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغريلاوى ،
- اشراف محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٧٢ .

أبو المحاسن :

- جمال الدين بن تغرى بردى الاتابكى) .
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٦٣ .

أبو يوسف :

- يعقوب بن إبراهيم (١١٣ — ١٨٢ هـ) .
- كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٩٧ هـ .

البشتاذرى :

- (أحمد بن جابر) .
- فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ .

البلوى :

- أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى البلوى .
- سيرة أحمد بن طولون ، دمشق ١٩٣٩ .

الجهشياري :

- محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ) .
- الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ .

الرقيق القبراونى :

- تاريخ افريقيّة والمغرب ، تحقيق المنجى الكعبى ، تونس ١٩٦٨ .

سعيد بن البطريق :

- (أفيثوس ت ٣٢٨ هـ) .
- التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، بيروت ١٩٠٩ .

السبيوطى :

- (جلال الدين بن عبد الرحمن) .
- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .

الشهابشتى :

- أبو الحسين على بن محمد المتوفى ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م .
- الديارات ، حققه وعلق عليه كوركيس عواد دمشق ١٩٥١ .

الضبيى :

- بغية الملتبس فى تاريخ علماء الاندلس .
- مدريد ١٨٨٤ .

الطسبرى :

- محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)
- تاريخ الامم والملوك ، القاهرة ١٩٧٩ .

عريب بن سـعد :

صلة تاريخ الطبرى ، لندن ١٨٩٧ .

القنطى :

اخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القاهرة ١٨٠٢ .

القلقشندى :

شهاب الدين أحمد بن على ، (ت ٨٢١ هـ) .

صبح الأعشى فى صناعة الانشا

طبعة دار الكتب ابتداء من سنة ١٩١٣ .

الكندى :

(أبو عمر محمد بن يوسف الكندى) .

كتاب الولاة والقضاة ، بيروت ١٩٠٨ .

المـاوردى :

(أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى)

ت عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م .

الاحكام السلطانية ، القاهرة ١٢٩٨ هـ .

مجهـول :

اخبار مجموعة فى فتح الاندلس ، مدريد ١٨٦٧ .

المراكشى :

(عبد الواحد ، المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، حققه

وعلق عليه سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٩ .

المسعودى :

على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦) .

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٨٣ .

مسكوية :

كتاب تجارب الأمم ، القاهرة ١٩١٥ .

المقدسى :

- شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت ٢٨٨) .
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، لندن ١٩٠٩ .

المقرئى :

- تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ) .
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، القاهرة ١٩٦٧ .

- اغاثة الأمة بكشف الغمة ، القاهرة ١٩٤٨ .
- امتع الاسماع بما للرسول من الأبناء والاموال والحنفدة والمتاع ، صحه وشرحه محمود محمد شاكر ، القاهرة ١٩٤١ .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت .

ناصر خسرو :

- سفرنامه ، برلين ١٩٤٥ .

هلال الصابى :

- أبو الحسن ، المحسن بن أبى اسحق (٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) .
- تحفة الإمرء فى تاريخ الوزراء ، القاهرة ١٩٥٨ .

ياقوت :

- معجم الأبناء ، القاهرة ١٩٦٥ .
- معجم البلدان بيروت ١٩٨٢ .

يحيى بن آدم :

(ت ٢٠٣ هـ) كتاب الخراج ، الطبقة الثانية .

يحيى بن سعيد :

صلة تاريخ أوتينا المسمى التاريخ المجموع على التحقيق
والتصديق ، تحقيق شيخو في جزعين ، بيروت ١٩٠٩ .

ابراهيم المدوى :

نظام المواطنة فى الاسلام ومنجزاته للحضارة العربية من
مجموعة البحوث فى تاريخ الحضارة الاسلامية ، القاهرة
١٩٨٣ .

أحمد عيسى :

مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين ، فصل من مجلة الجمعية
المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٦ ، ١٩٦٤ .

الدورى :

تاريخ العراق الاقتصادي فى العراق فى القرن الرابع
الهجرى ، بغداد ١٩٤٨ .

ارنولد :

الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم وآخرين ، القاهرة
١٩٤٧ .

الرئيس :

الخراج والنظم المالية فى الدولة الاسلامية ، القاهرة ١٩٨٥ .

روفاثيل بابو اسحق :

أحوال نصارى بغداد فى عهد الخلافة العباسية ، بغداد
١٩٦٠ .

السيد عبد العزيز سالم :

تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس من الفتح العربى حتى سقوط
الخلافة فى قرطبة ، بيروت ١٩٦٢ .

بتلر :

فتح العرب لمصر ، تعريب فريد أبو حديد ، القاهرة ١٩٣٣ .

ترتون :

أهل الذمة فى الاسلام ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة
١٩٦٧ .

جروهمان :

أوراق البردى العربية ، ترجمة حسن ابراهيم حسن
وعبد الحميد حسن ، القاهرة ١٩٣٤ .

جورجى زيدان :

التمدن الاسلامى ، القاهرة ١٩٥٨ .

حسن أحمد محمود :

الاسلام فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى ،
القاهرة ١٩٦٨ .

سعيدة كاشساف :

مصر فى فجر السلام ، القاهرة ١٩٨٦ .
مصر فى عهد الاخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ .

ســـرور :

- تاريخ الحضارة الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٥ .
- قيام الدولة العربية الاسلامية ، القاهرة ١٩٤٦ .

عطية القوصى :

- اضاء على تجارة الكارم ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مجلد ٢٢ ، ١٩٧٥ .
- اليهود فى ظل الحضارة الاسلامية ، الكويت ١٩٧٧ .

على سامى النشار :

- الفكر اليهودى وتأثره بالفلسفة الاسلامية ، الاسكندرية ١٩٧٢ .

على عبد الواحد واقى :

- بحوث فى الاسلام والمجتمع ، القاهرة ١٩٧٧ .

قاسم عبده قاسم :

- أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٩ .
- اليهود فى مصر ، القاهرة ١٩٨٧ .

كارل بروكلمان :

- تاريخ الشعوب الاسلامية ، نقله الى العربية أمين مارس — منير البعلبكي ، بيروت ١٩٦٩ .

كلود كاهن :

- تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، بيروت ١٩٨٣ .

مـــاجد :

- الحاكم بأمر الله ، القاهرة ١٩٥٩ .
- المستنصر بالله ، القاهرة ١٩٦٠ .

مستتر :

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد
عبد الهادى أبو ريدة ، بيروت .

محمد حميد الله :

مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوى والخلافة
الراشدة ، القاهرة ١٩٤١ .

محمود اسماعيل :

سوسيولوجيا الفكر الاسلامى ، الدار البيضاء ١٩٨٠ .

مراد فـرج :

القراءون والريائون ، القاهرة ١٩١٨ .

مؤنس :

نجر الاندلس ، القاهرة ١٩٥٩ .

يوليوس فلهوزن :

تاريخ الدولة العربية ، ترجمة عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة
١٩٥٨ .

المراجع الأجنبية

Ashtor :

Histoire du prix et des salaires dans l'orient médiéval Paris, 1969.

Matériaux pour l'histoire des prix dans l'Egypte médiéval, JESHO. V. 1, 1963.

Cohen:

A Jewish-self governments in Medieval Egypt, 1980

Dubnov. S. :

History of the Jews London 1968.

Encyclopedia of Islam, 2ed. art Dhimma. :

Fischel, :

Jews in the economic and political life of the Medieval Islam, London 1968.

Goitein. S. :

Jews and Arabs, Their Contact Through The Ages,
New York 1955.

Mediterranean Society, Barkely, Los Anglo, 1967.

Mann, :

The Jews in Egypt and Palestine Under The
Fatimids, Oxford 1967. ' . .

Nissim Rejwan v :

The Jews of Iraq, 1985

المحتوى

الصفحة

٧	تقديم د . عبد العظيم رمضان
٩	المقدمة
١٥	تمهيد : تعرف « غير المسلمين »

الفصل الأول :

١٧	المنهاج الاسلامى فى معاملة غير المسلمين
١٩	— موقف القرآن الكريم والسنة النبوية
٢١	— الدعوة الى الاسلام
٤٠	— الجزية

الصفحة

— الخُراج ٥٢

— عقد الذمة وشروطه ٥٩
الفصل الثانى :

الحرية الدينية والمدنية ٧٩

الفصل الثالث :

وفلائف غير المسلمين فى الجهاز الادارى ١٠٧

الفصل الرابع :

دور غير المسلمين فى الحياة الاقتصادية ١٣١

— التجارة ١٣٦

— الصيرفة ١٣٩

— الجهيزة ١٤٣

الفصل الخامس :

غير المسلمين والحياة الاجتماعية والثقافية . . . ١٤٧

الرعاية الاجتماعية ١٥٣

الصفحة

— علاقتهم بالمسلمين	١٥٥
— الذروات	١٥٧
— الأعياد	١٦٠
— حرية التعليم	١٧٢
— الترجمة	١٧٥
— الطب	١٧٧
— الخاتمة	١٨٥
— ثبت المصادر والمراجع	١٩١

صدر في هذه السلسلة

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ
د . عبد العظيم رمضان
- ٢ - على ماهر
إعداد : رشوان محمود جاب الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة
إعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة
د . محمد نعمان جلال
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية في العصور الوسطى
عليه عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر جا
لمعى المطيعي
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي
د . عبد المنعم ماجد
- ٨ - رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية
د . على بركات
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د . محمد أنيس

١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية

محمود فوزى

١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية

شكرى القاضى

١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير

د . نبيل راغب

١٣ - أكلوبة الاستعمار المصرى للسودان

د . عبد العظيم رمضان

١٤ - مصر فى عصر الولاة

د . سيدة إسماعيل كاشف

١٥ - المستشرقون والتاريخ الإسلامى

د . على حسنى الخريوطلى

١٦ - فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر

د . جلمى أحمد شلبى

١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى

د . محمد نور فرحات

١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية

د . على السيد محمود

١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين

د . أحمد محمود صابون

٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن

د . محمد أنيس

٢١ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ج ١

توفيق الطويل

٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر

جمال بدوى

٢٣ - التصوف في مصر إبان العصر العثماني ج٢

توفيق الطويل

٢٤ - الصحافة الوفدية

د . نجوى كامل

٢٥ - المجتمع الإسلامي والغرب

تأليف: هاملتون جب وهارولد بويين

ترجمة : د . أحمد عبد الرحيم مصطفى

٢٦ - تاريخ الفكر التربوي في مصر الحديثة

د . سعيد إسماعيل على

٢٧ - فتح العرب لمصر ج١

تأليف : ألفرد بتلر

ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٨ - فتح العرب لمصر ج٢

تأليف : ألفرد بتلر

ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٩ - مصر في عهد الاخشيديين

د . سيدة إسماعيل كاشف

٣٠ - الموظفون في مصر في عهد محمد علي

د . حلمي أحمد شلبي

٣١ - خمسون شخصية وشخصية

شكري القاضى

٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج٢

لمعنى المطيعى

- ٣٣- مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د . خالد الكومى
- ٣٤- تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د . يونان لبيب رزق
- ٣٥- اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبدالحميد توفيق زكى
- ٣٦- المجتمع الإسلامى والغرب ج ٢
تأليف : هاملتون جب وهارولد بويين
ترجمة : د. أحمد عبدالرحيم مصطفى
- ٣٧- الشيخ على يوسف
تأليف : د . سليمان صالح
- ٣٨- فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى
د . عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم
- ٣٩- قصة احتلال محمد على لليونان
د . جميل عبيد
- ٤٠- الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د . عبدالمنعم الدسوقي الجمعى
- ٤١- محمد فريد الموقف والمأساة
د . رفعت السعيد
- ٤٢- تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غريال
- ٤٣- رحلة فى عقول مصرية
إبراهيم عبد العزيز

- ٤٤- الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني
د . محمد عفيفي
- ٤٥- الحروب الصليبية ج ١
تأليف : وليم الصوري
ترجمة : د . حسن حبشي
- ٤٦- تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٦ : ١٩٥٧
د . عبدالرؤف أحمد عمرو
- ٤٧- تاريخ القضاء المصري الحديث
د . لطيفة محمد سالم
- ٤٨- الفلاح المصري
د . زبيدة عطا
- ٤٩- العلاقات المصرية الإسرائيلية
د . عبد العظيم رمضان
- ٥٠- الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
د . سهير اسكندر
- ٥١- تاريخ المدارس في مصر الإسلامية
اعداد : د . عبد العظيم رمضان
- ٥٢- مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر
تأليف : د . إلهام محمد على نعلی
- ٥٣- أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك
د . محمد كمال الدين عز الدين على
- ٥٤- الأقباط في مصر في العصر العثماني
د . محمد عفيفي

- ٥٥ - العروب الصليبية ج٢ .
تأليف : وإيم للصوري
ترجمة وتحقيق : د . حسن حبشي
- ٥٦ - المجتمع الريفي في عصر محمد علي
د . حلمي أحمد شلبي
- ٥٧ - مصر الإسلامية وأهل الذمة
د . سيدة إسماعيل كاشف
- ٥٨ - أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة
د . إبراهيم عبدالله المسلمي
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر
د . عبد السلام عبدالحميد عامر
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية
عبد الحميد توفيق زكي
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية
د . عبد العظيم رمضان
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج٣
لمعى المطيعي
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور
إعداد : د . عبد العظيم رمضان
- ٦٤ - مصر وحقوق الإنسان
د . محمد نعمان جلال
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية
د . سهام نصار

- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي
د . نريمان عبد الكريم أحمد
- ٦٧ - الأصول التاريخية لمساعي السلام العربية الإسرائيلية
د . عبد العظيم رمضان
- ٦٨ - الحروب الصليبية ج٢
تأليف : وليم الصوري
ترجمة وتحقيق : د . حسن حبشي
- ٦٩ - نبوة موسى ودورها في الحياة المصرية
د . محمد أبو الأسعاد
- ٧٠ - أهل الذمة في الإسلام
تأليف : أ.س. تريتون
ترجمة : د. حسن حبشي
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرن
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي
د . أمينة أحمد إمام الشوريجي
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة
د. رؤوف عباس حامد
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة
د . يحيى سمير الجمال
- ٧٥ - أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول
د . سلام شافعي محمود
- ٧٦ - دور التعليم في مصر
د . سعيد إسماعيل علي

٧٧ - الحروب الصليبية ج٤

تأليف : وليم المصورى

ترجمة : د . حسن حبشى

٧٨ - تاريخ انصاف السكندرية

نصائح أحمد عثمان

٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية فى مصر فى القرن التاسع عشر

تأليف : فريد يونج

ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال

٨٠ - فتاة السويس والتنافس الاستعماري

د . السيد حسين جلال

٨١ - تاريخ السياسة والصحافة من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر

د . رمزى ميخائيل

٨٢ - مصر فى فجر الإسلام

د . سيدة إسماعيل كاشف

٨٣ - مذكراتى فى نصف قرن ج١

أحمد شفيق باشا

٨٤ - مذكراتى فى نصف قرن ج٢ - القسم الأول

أحمد شفيق باشا

٨٥ - تاريخ الاذاعة المصرية

د . حلمى أحمد شلبى

٨٦ - تاريخ التجارة المصرية

د . أحمد الشربينى

٨٧ - مذكرات اللورد كليرن ج٢

ترجمة : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو

٨٨ - التذوق الموسيقى

عبد الحميد توفيق زكى

٨٩ - الموانى المصرية

د . عبد الحميد حامد سليمان

رقم الايداع ١٩٩٥/١٨١٠

الترقيم الدولي 3 — 4582 — 10 — 977 I.S.B.N.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذا الكتاب

يتناول في الفصل التمهيدى تحديد المفهوم الخاص بأهل الذمة. والمنهج الإسلامى فى معاملتهم. أما الفصل الثانى فيتناول الحرية الدينية والمدنية التى تمتع بها أهل الذمة فى الدولة الإسلامية بالمقارنة بما نالوه من هذه الحريات قبل الإسلام. أما الفصل الثالث فتناول الوظائف التى شغلها أهل الذمة فى العصر الإسلامى. وتناول كل من الفصلين الرابع والخامس دور أهل الذمة فى الحياة الاقتصادية فى الدولة الإسلامية، وأحوالهم الاجتماعية والثقافية. وكل ذلك بالإستناد إلى المصادر التاريخية الأولية.

وبهذا الكتاب تكون هذه السلسلة قد أظهرت إهتمامها بالعلاقة بين المسلمين والأقباط خاصة، وأهل الذمة عامة، فى مصر، على نحو يهيم مجموعة قيمة من المراجع التاريخية. فقد قدمت للدكتورة سيدة إسماعيل كاشف كتاب: «مصر فى فجر الإسلام، و«مصر الإسلامية وأهل الذمة». و«مصر فى عصر الولاة»، وقدمت للدكتور سلام شافعى محمود كتاب: «أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول»، وللمؤرخ «تريتون، كتاب: «أهل الذمة فى الإسلام»، الذى ترجمه المؤرخ الكبير الدكتور حسن حبشى. هذا فى

التاريخ الإسلامى. أما فى التاريخ الحديث فقد قدمت الدكتور محمد عفيفى: «الأقباط فى مصر فى العصر وبذلك تكون هذه السلسلة هى أول سلسلة تقدم للمكتبة العدد المتميز من الكتب التاريخية التى تعالج العلاقة وأهل الذمة.

Bibliotheca Alexandrina



0332546

